فِـي الأدب العباسـي

د. كمال محمد عبد البر

كلية دار العلوم – جامعة القاهرة

إِشْكاليةُ التقسيمِ

عُـمِّـرَتِ الخلافةُ العباسية حقبةً أنافَتْ علَى خمسة القرونِ، إذ تأسستْ الدولة العباسيةُ عام 132هـ، وانتهت بسقوط بغدادَ فِـي أيدي المغول سنةَ 656هـ، أي أنها ظلتْ (523) عامًا، وقد أدى ذلكَ الامتداد الزمني إلى اختلافِ الباحثين فِـي تقسيم هذا العصر، ما بين تقسيم سياسيٍّ وآخر أدبي، ثم يتنوع التقسيمُ السياسي إلى: تقسيم ثنائِي وثلاثي ورباعي، مع الأخذ فِـي الاعتبار أن بعضَ مؤرخِي الأدبِ قد تَبِعُوا تلكَ التقسيمات السياسيةَ أو بعضَها، ومن ثم تداخَلَ التقسيمانِ السياسيّ والأدبي، ويمكن إيجاز تلك التقسيمات على النحوِ الآتِـي:

أولًا – التقسيماتُ السياسيةُ:

1 – التقسيم الثنائي[1]: حيث تُـقسم الدولةُ العباسية إلى حِقبتين زمنيتين:

أُولاهما– العصر العباسي الأول: ويمتد من (132هـ– 334هـ) أي منذ وصول العباسيين إلى الحكم وحتى دخول البويهيين إلى بغداد سنةَ 334هـ.

ثانيتهما– العصر العباسي الثاني: ويمتد من دخول البويهيينَ بغداد سنة 334هـ وَحتَّى سقوطِها سنةَ 656هـ.

2 – التقسيمُ الثلاثي[1]:

(1) سَار على هذا التقسيم معظم الباحثين، أبرزهم **د. ناظم رشيد**، الأدب العربي فِـي العصر العباسي: 21، 187، ود. **محمد عبد المنعم خفاجي**، الذي ألفَّ كتابَ الآداب العربية فِـي العصر العباسي الأول.

أ- العصر العباسي الأولُ: (132هـ - 232هـ)

ب- العصرُ العباسيُّ الثاني (232هـ -334هـ) وقد سيطرَ الجنودُ الأتراكُ على الحكم فِي هذهِ الحقبة الزمنية لذلكَ أسماه حنا الفاخوري باسمِ الجنديَّـةِ .

جـ- العصرُ العباسيُّ الثالثُ: (334هـ-656هـ) ويُسمَّى بعصرِ الدولِ والإمارات، وسُمِّيَ بهذا الاسمِ بسببِ نشوءِ الإمارات فِي مختلفِ أنحاءِ الدولة العباسية، وأهم هذه الإمارات الحمدَانية فِي بلاد الشام (317-394هـ) والبويهيَّة فِي بلاد فارس والعراق (320-447هـ) والإخشيدية فِي مصر(323-357هـ) والفاطميَّة فِي مصر أيضًا (357-567هـ) .

3- التقسيم الرباعي: وهو التقسيمُ إلى حقب زمنية تسمى عادة باسم (العنصرِ المسيطِرِ)، لذلك قُسِّمَ هذا العصرُ أَربعَ حِقبٍ[2]، وهي:

أ- العصرُ العباسي الأول: وهو العصر الذي كانت فيه السيادة للخلفاءِ الأقوياء من بني العباسِ الذينَ استطاعُوا أنْ يَحسموا النزاع الدائرَ بين (العرب والفرس) لصالحِ العرب كما سَنَرى، ويمتد هذا العصرُ من تأسيسِ الدولة العباسية عامَ (132هـ) إلى عامِ (232هـ) .

ب- العصر العباسي الثاني: وهوَ عصرُ سيادةِ الأتراك على الخلافةِ، ويَمتدُّ هذا العصرُ من عام (232هـ) إلى عام (334هـ).

---

(1) ممنْ سار على هذا التقسيم: **د. شوقي ضيف** الذي ألف كتاب العصر العباسي بأجزائه الثلاثة: العصر العباسي الأول، والثاني، وعصر الدول والإمارات. و**حنا الفاخوري** فِي كتابه: الجامع فِي تاريخ الأدب العربي، الأدب القديم، ط1، دار الجيل بيروت – لبنان، 1986م: 19-22.

(2) ينظر: تاريخ آداب اللغة العربية، تأليف: جرجي زيدان، دار الهلال – مصر، د. ت: الجزء الثاني: 38، 156، 224، والجزء الثالث: 8.

جـ- العصرُ العباسي الثالثُ: وهو العصر الذي ظهر فيه نفوذ الفرس البويهيين على الساحة السياسية والعسكرية، من عام (334هـ) وينتهي عام (447هـ)، ولذَا يُعرَفُ بعصرِ بنِي بُويهٍ أو العصرِ الفارسيِّ.

د - العصرُ العباسي الرابعُ: وهو عصر ظهورِ السلاجقة على الخلافة العباسيةِ، والذي يبدأُ عامَ (447هـ) وينتهي بسقوط بغدادَ عامَ (656هـ) .

ولعلَّ **تقسيم أستاذنا الدكتور «محمد أبو الأنوار»[1] قد تأثرَ بهذا التقسيم الرباعي، لكن تقسيمه** - وإن بقيَ معتمدًا على تأمل الوقائع السياسية وملاحظة ما قد يبدو بينها من حدود فاصلةٍ - فإنه يَـختلفُ عنه فِـي عَدَدِ الأعصـرِ المرصودة، وكذلك فإنه لم يجعل «العصـرَ العباسي» مَقصورًا على هذهِ الحقبةِ الوجيزةِ مِن عُمر الدولةِ فِـي القرنين الأولينِ:

فهناكَ **العصـرُ العباسي الأولُ** الذي بدأَ بخلافةِ السفاحِ (132- 136هـ) وانتهى بالواثق (227-232هـ)، ويسمى **بالعصـر العربي**؛ لأن سلطة الخلافة كانتْ في يَـدِ الخلفاء العرب، وظلوا متيقظين لتربّص العلويين بهم بعد انتزاع الخلافة منهم.

والعصـر الثاني الذي يُسمَّى بعصـرِ النفوذ التركيِّ يبدأُ بالخليفةِ المتوكلِ (232-247هـ) وينتهي بالمستكفِـي (333-334هـ) وفيهِ ما زالَتْ السلطة تتزحزحُ شيئًا فشيئًا عن يدِ الخلفاء إلى يدِ جنودِهم مِنَ الأتراكِ حتى ضعفَ نفوذُهم مع أواخرهِ إلى حدٍّ بعيد، وأصبحَ القرار فِـي يدِ النخبة من رجال الجيشِ الأقوياء، وأصبح الواحدُ منهم[2] يُلقَّبُ بلقب (أمير الأمراءِ) كما فعل الخليفةُ الراضِي (322-329هـ) معَ (ابن رائق) الذي كان يلي شؤونَ البصـرة، حيث سلَّمه مقاليد الأمور وأمرَ بأن يخطبَ لَه على المنابرِ، وأصبح الخليفة والوزيرُ فِـي الدولة كمقاعدِ الزينة التي تظهر فِـي المناسباتِ إذَا اقتضَتِ الحاجةُ ذلك، وظل الأمر فِـي يد أمير الأمراءِ من (322-334هـ).

فِـي هَذيْنِ العصـريْنِ ازدهرَتِ الحياةُ الأدبيةُ واللغوية والفكرية بفضلِ احتفاءِ الخلفاء والولاةِ بالشعراءِ وأربابِ الأدبِ والفكر والإغداقِ علَيهم، وفيهما امتزجَ الفكر العربي الإسلاميُّ بغيرهِ مِنَ العلومِ والثقافاتِ الأخرَى بفضلِ ما شهدتهُ الفترة من توسعٍ ليسَ له نظير فِـي الترجمة والتحفيزِ عليهَا،

---

(1) الشعر العباسي - تطوره وقيمه الفنية، ص 17 .

(2) السابق، ص 20 .

حتى إن المترجِمَ كان يُعطَى فِي عهدَي الرشيد (170-193هـ)، والمأمون (198-218هـ) وَزْنَ مَا تَرجَمَ ذهبًا؛ وتكونتْ بفعلِ ذلكَ حضارةٌ متميزةٌ قوامُها العقلُ العربي والثقافةُ الإسلاميةُ، وأفادتْ مِنْهَا الحضارةُ الإنسانيةُ فِي أدوارِهَا التاليةِ، بَل انطلقتْ مِنهَا.

على أنَّ مِائةَ السنةِ الأولَى (132-232هـ) هي العصرُ المزدحِمُ الذي شَهدَ حرارة الانطلاق نحوَ النهضة، وظلت قوة الدفع تباشر فعلَها فِي مسارات تلك النهضةِ طَوالَ العصر العباسي الثاني؛ حيثُ انشغلَ الخلفاءُ بتتبع السلطةِ المتفلتة من أيدِيهم فِي طريقها إلى الترْكِ.

أمَّا **العصر الثالث** ويُسمَّى **«عصرَ بَني بُويْه»** (334-447هـ)، ويقال له أيضًا: «العصر الفارسي»؛ لنسبِ ملوكِهم الممتد إلى دهماءِ الفرس أو إلى «بَهرَام جُور» أحدِ ملوكِ آل ساسَانَ، وفِي هذه السنوات التي تربو علَى المائة بقليل عاشَ أبو العَلاء المعرِّي (363-449هـ) والشريفِ الرضِيّ (359-406هـ) ونشطَ التأليف العلمي وكثرتِ الموسوعات، وفِي بغدادَ شاع ذِكْرُ مكتبتِهَا التي ضمَّنَها الوزير «بهاء الدين بن بويه» أكثرَ من عشرة آلاف مجلد مخطوط لأئمة العلوم فِي عصره احترقتْ عندَ دخولِ السلاجقةِ.

وتجاوبتْ أصداءُ هذه النهضةِ العلمية فِي كنفِ الدولة البويهية معَ مثيلاتٍ أخرَى فِي الدويلات المنفصلة عن جسد الخلافةِ كالدولة السامانيةِ بتركستانَ (261-389هـ) والدولة الزيارية بطبرستانَ (316-434هـ) والإخشيدية بمصر (323-358هـ) والغزنوية بأفغانستان والهند (292-380هـ) والفاطمية بمصر (357-567هـ) والحمدانية بالشام (317-394هـ)، وأتى التنافسُ بينَ أمراء هذهِ الدويلاتِ ثِماره فِي إكرام العلماء وكثرة التأليف وشيوع المكتباتِ العامرةِ.

وبسقوطِ بغدادَ فِي أيدي **السلاجقة** - وهم خليط فرسانٍ مِنَ الترك والفرس - يبدأ **العصرُ الرابع** سنة 447هـ ويستمر حتى سقوط دولتهم على يدِ المغول سنة 656هـ.

وبعدَ سيطرة المذهب الشيعي فِي عهد الدولة البويهية آلَتِ السيطرة إلى الاتجاه السنِّي فِي ظل السلاجقةِ، وانتشرت فِي عهدهم المدارس العلمية الكبرى فِي العالم الإسلامي كالمدرسةِ النظامية ببغداد التي أدار الحركة العلمية فيها أساتذة كبار أمثال «أبو إسحق الشيرازي»، و«الإمام الغزالي»، و«أبو زكريا التبريزي»، و«العماد الأصفهاني»، و«كمال الدين الأنباري».

وفِي دمشق وحلب وحماة بنَى نورُ الدينِ زنكي مدارسَ علميةً، وكذلك فعلَ السلطان صلاح الدين حيث أكثرَ من تشييد المدارس فِي مصرَ والإسكندريةِ.

وأفرزتْ حركة التأليف فِـي تلك الفترة مجموعة من الكتب الموسوعية التي قام بعضُها على التلخيص والتجميع كمعجم الأدباء ومعجم البلدان لياقوت الحموي، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد، ووفيات الأعيان لِابْنِ خَلِّكَان[1]، ومازالت «الموسوعيةُ» فِـي التأليف تنشط من غير توقف حتى غدت أهمَّ سماتِ الحركة العلمية فِـي عصـر المماليكِ الذي بدأ بِتلاشِي نفوذ دولة السلاجقة وأفولِ نجمِ الخلافة العباسية عام 656هـ.

ومَهما يكن من أمر فإن الظاهراتِ الأدبيةَ والثقافية لا تتبعُ الأحداثَ السياسيةَ، ولا ترتبط بها ضربةَ لازبٍ، ذلكَ أن التدرجَ هوَ سُنَّـةُ التطورِ، فليس ثمة ظاهرة أدبيةٌ أو ثقافية تطفرُ إلى الوجود بغتة دون مقدمات أو إرهاصاتٍ، وبناء على هذا فإن زوالَ الدولة الأموية وقيام الدولة العباسة لا يعني أن عواملَ التطور والتجديد قد ظهرتْ معها أو أنها كانت منعدمةً قبلها، فالدولة الأموية نفسُها قد تغيرت أواخرَ أيامها عن بدايتِها، ومن ثم صح قول الأستاذ **أحمد أمين**: "إن الدولةَ الأمويةَ لو قُـدِّرَ لها أن تستمر فِـي الحكم الزمنَ الذي حكمته الدولة العباسية لظهرَ على يديها من الحركات العلمية والإصلاحات الاجتماعية قريبٌ مما ظهر على يَـدِ العباسيين"[2].

وصفوة القولِ: إنَّ التحقيبَ الزمني أو السياسي الحاسم أو الصارمَ للظاهراتِ الأدبية أو الثقافية أمر متعذرٌ، فليس ثمةَ ظاهرةٌ ثقافية تظهر بغتةً أو تطفرُ إلى الوجود فجأة دون مقدماتٍ أو ممهداتٍ، وكثير من ظواهر العصر العباسي قد وَجَدَتْ جُذورًا لها فِـي العصر الأمويِّ.

ثانيًا – التقسيمُ الأدبِـيُّ

وهوَ التقسيم الذي يُعْنَى بالظواهر أو التحولات الأدبية أكثر مما يُعْنَى بالتحولات السياسية، ويمكن الإشارة هنا إلى تقسيمين أدبيين:

أولهما – تقسيم د. يوسف خليف

---

(1) السابق والصفحة.

(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية لمكتبة الأسرة 2002م، ج1/ ص 15، وانظر كذلك د. محمد أبو الأنوار: الشعر العباسي ص 73.

يرى **د. يوسف خليف** أن كلَّ قَرنٍ من قرون العصر العباسي ابتداءً من القرن الثاني الهجري قد تميزَ بظاهرة أدبية لافتة، ومن ثم بَـدَا له أن يقسِّمَ العصر العباسي إِلَـى:

1- القرن الثاني:

شُغِلَ بقضية أدبية ضخمة، وهي **قضية التجديد فِـي القصيدة العربية** للخروجِ بهَا من إطار الكلاسيكية الجديدة التي شهدتها القصيدة الأموية إلى إطار جديدٍ تكون فيه قادرةً على التعبيرِ عن المجتمَعِ الجديد، وقد شُغِلَ الشعراء الكبار بهذا الدور، واستطاعَ بشارٌ وأبو نُواس وأبو العتاهيةِ أن يَنجحوا فِـي هذه المحاولة، وأن يُـرْسُوا تقاليد القصيدة العباسية الجديدةِ.

2- القرن الثالث:

والقضية التي ميزت هذا القرن هي **قضية الصراع بين القديم والجديد** أو بينَ المحافظين من أصحاب عمود الشعرِ، والمجددين من أصحاب مدرسةِ البديع، وكان **أبو تمام** زعيمَ المجددين، و**البحتري** (زعيم المحافظينَ) هما قُطبي هذَا الصراعِ.

3- القرن الرابعُ:

كان هذَا القرنُ عصرَ **المتنبي** غير مدافَعٍ؛ حيث شغله شاعرُ العربية الأكبر بمحاولته الناجحةِ فِـي التخلص من أثقالِ البديع وقيودِهِ.. ليعيد للقصيدة العربية رُوحَها البدوي فِـي غير انفصالٍ عَنْ رُوح العصر الجديد بما يحمله من ثقافاتٍ عقليةٍ، فحققَ بها مزاوجة عبقرية بين بساطة البداوة وصفائها وفطريتها، وبين ثقافة عصره العقلية بقضاياها المعقدة.

4- القرن الخامس:

وهو عصرُ **أبي العلاء المعري** دونَ منازع.. آخرِ عمالقة الشعر العربي القديم الذي استطاعَ أنْ يرتفع بشعره إلى مستوًى إنساني رفيع عن طريقِ المزاوجة النادرة بين الفن والفلسفةِ معَ قدرته الفذة علَى التصرفِ فِـي اللغة وإخضَاعِها لأفكار الفلسفة العقلية الغريبةِ عليهَا.

ثانيهمَا – تقسيم الأستاذ حنَّا الفاخوري؛ حيث قسم العصر العباسيَّ أقسامًا ثلاثة هي:

1– القسم الأول: أدبُ الثورة التجديدية، ويبدأ ببشار بن برد (96 هـ – 168هـ)، وينتهي بظهورِ أبي تمامٍ ، ومن أبرز أعلام هذا الاتجاه: أبو نواس (145 – 198هـ)، وأبو العتاهية (130 – 210هـ) ومسلم بن الوليد (130 – 208هـ)، والعباس بن الأحنفِ (192 هـ) والحسين بن الضحاك (162 – 250هـ)، ومِنَ الكُتَّابِ عبد الله بن المقفع (106–142هـ)، وسهل بن هارونَ (215 هـ).

2– القسم الثاني: أدب الحركة المعاكسَةِ، ويَبدأ بظهورِ أبي تمام (180 – 228هـ)، وينتَهِي بظهورِ المتنبي، ومن أبرز أعلامهِ: البحتري (206 – 284هـ)، وابن الرومي (221 – 283هـ)، وابن المعتز (249 – 296هـ)، ومِنَ الكتابِ شَيخُهم الجاحِظُ (159 – 255هـ).

3– القسم الثالث: أدبُ الاستقرارِ والتدرج نحو الصنعةِ والزخرف، ويبدأ بظهورِ المتنبِّي (303–354هـ)، ومن أبرز أعلامه أبُو فِراس الحمداني (320– 357هـ)، والشريف الرضي (359–406هـ)، وأبو العلاء المعري (363– 449هـ) وينتهي بنهايَـةِ البهاءِ زُهير (581– 656هـ).

وربما كان هذا التقسيمُ الأخيرُ أقربَ إلى الصحةِ من وجهةِ نظرِنَا مع عدم التسليمِ الكاملِ بالأحكامِ المرصودة للتمييز بين الشعراءِ داخل القسم الواحد على نحو مَا لاحظنا علَى مَن أدرجَ من الشعراء فِـي القسم الثالث مثلًا أو بتلكَ التي عبرَ عَنِ الخصائص الفارقة بين بعضِ الأقسام؛ فوصفُ «الحركة المعاكسة» ليس مُعبرًا بحَسمٍ عن الشعراء الداخلينَ فيه، هذا فضلًا عن أن الظواهر الأدبية لا تَعرِفُ التحديد الحاسِمَ، والشاعر المبدع لا ينعزل تمامًا بشعره، وإن ظلت له شخصيتُه المستقلةُ.

ولئنْ صدقَتْ هذهِ المؤاخذة على هذا التقسيم فهيَ علَى التقسيم الذي سبقه أولَى بالتسليم؛ لأنه إذْ لَا يُراعِي مسلَّمةَ التفاعل الخلَّاقِ بين الظواهر الأدبية فهوَ يُضيف إلى ذلك صرامةً زمنيةً فِـي الفصل بينَها عندمَا جعلَ كل قرن مستقلًا بواحدةٍ مِنهَا.

أما القول بأن مسوِّغاتِ تقسيم العصـر العباسي تقسيمًا داخليًّا إلى عصور مختلفة لم تَعُـدْ مقنعةً[1]؛ لأنَّ النقلة الكبيرة التي أحدثتْها الثورة العباسية فِـي حياة العرب والمجتمع الإسلامي ظلتْ تُمثلُ الإطار العام لحياة الدولةِ الجديدة الذي يَستوعِبُ كلَّ مَا بداخلهِ مِنْ تنوعٍ دونَ أنْ يُصيبَه أيُّ تغييرٍ جذريٍّ أو جوهري.. أو بعبارة أخرى : إن عنصرَ الاستمرار يظل هو السمةَ العامة للعصـر كله، فهو معَ التسليم بكون العصـر العباسي عصـرًا معقدًا بالغ التعقيد.. ومربكًا فِـي بعض الأحيان – يجعل الظواهرَ الأدبية خاضعة للحوادث التاريخية وللتفسيرِ السياسي دون سواهُ، كما أن هذا القول لا يُلغِي الحاجة إلى تأملِ الظواهرِ الأدبية المتميزة وتتبعِ أصولها وترصُّدِ مراحل نشأتها وتطورِهَا وعواملِ تلاشِيها فِـي حقبةٍ زمنيةٍ محددةٍ أو أقرب إلى التحديدِ فِـي العصـرِ العباسيِّ.

الامتدَادُ المكاني:

وكما كانتِ الدولة العباسية من أطولِ الدول الإسلامية عُمُرًا فقد امتدت من حيثُ الاتساع المكانِي لتشملَ أجزاء كبيرة من الوطن الإسلامي؛ إذِ امتدتْ من حدود الصينِ شرقًا حتى الجزائرِ غَربًا.

وبقيتِ الدولةُ مستوعبةً لكلِّ الوافدين إليهَا من الأجناس الأخرَى وأبناء البلاد المفتوحةِ الذينَ انسربُوا فِـي جنباتِ الدولة، وما زالوا يَسعوْنَ إلى جعل الضادِ لسانَ تخاطبهم ووسيلة تفاهمهم محاولينَ الاندمَاج فِـي المجتمع والوصول سريعًا بثقافتِهم إلى مكامِنِ التأثير فِـي الحياة الفكريةِ والتفاعل الثقافِـي فِـي المجتمعِ الإسلاميِّ.

(1) انظر: فِـي الشعر العباسي – الرؤية والفن، د. عز الدين إسماعيل، دار المعارف، 1980، ص 5 .

كانَ طَبيعيًّا – من ثم – أن تتنوعَ المراكزُ الثقافية كما كانَ طَبيعيًّا أن تتحولَ بؤرُ الاستقطاب الثقافِي من مكة والمدينة بالحجازِ ودمشق بالشام فِي عهد بني أمية إلى أخرَى غدتْ مُهيئَةً لاستيعاب التنوع الثقافِي والفكريِّ المنتظَرِ غير تِلْكَ التِي أسلمَ قيادةَ السطو والتحكيم فِيها للجنسِ العربي. وبِذَا أصبحتِ «الكوفةُ» و«البصـرةُ» و«بغدادُ» عواصمَ كُبرى ومراكز ثقل فكرِيّ ومعقلًا للإبداعِ الأدبيّ والترجماتِ عَنْ شَتَّى العلوم وصنوفِ الفنون فِي الثقافات الوافدةِ إبانَ العصرِ العباسيِّ[1].

1 – الكوفَـةُ:

كانت خراسانُ مركزًا لقيادة المعارضةِ لبني أميةَ. لكن الكوفةَ – قبل أن تصبح العاصمةُ الأولَى للعباسيين قبل بغداد – كانت همزةُ الوصل بين الأنصارِ وبينَ «محمدِ بن علِـيّ بنِ عبد الله بنِ العباس» رأس التنظيم ومفجر الدعوةِ، وقد كانت الكوفةُ «أكثر انطلاقًا وتأثرًا أو حفاظًا على القديم؛ لأنها ليست من الثغورِ. ومن ثم، فليستْ مجالًا للاختلاطِ بين الأجناس والثقافات التي تطغَى على التراثِ أو تتغول عليهِ وتَمحوهُ»[2]. وقد هيأهَا لهذا الدور طبيعتُها الجغرافيةُ ببعدها عن البحرِ وقُربِها إلى الجزيرةِ العربيةِ – أولًا – وطبيعتها الثقافية باحتضَانِها بيئةَ الثقافة العراقيةِ القديمة والآثار المسيحية فِي صُوَرِ الأديرَةِ والبيع المنتشرة بالحيرةِ، ثانيًا.

2– البصـرَةُ:

كانتْ هذه المدينة – بحكمِ موقعِها البحريِّ – حلقةَ الوصلِ بينَ الشـرق والغرب، وموفدًا لأصحابِ الثقافات بين الأممِ الأخرى عبر الخليج وبحرِ الهند والصين؛ فضلًا عن كونها عربيةَ النشأةِ

(1) انظر د. صبري أبو جازية: تاريخ الأدب العباسي ص11.

(2) دراسات فِي الأدب العربي – العصر العباسي، د. محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، د.ت.، ص 8 .

حيثُ نَزلتْها بعدَ فتحِ فارِس للإقامة بعضُ قبائلِ العربِ مِنْ أهلِ العاليةِ[1] من تميم وبكر بن وائل وعبد قيس الأزد، وتُعَـدّ تميم المؤسسَ الحقيقي للبصـرة، فقد حملَ رجالات هذه القبيلة لواءَ الثقافةِ العربيةِ وكانوا عِمادَها، سيما فِـي القرن الأول وفِـي السنة الأولَى للدولة العباسيةِ[2].

عَلَـى أنَّ البصـرةَ كانت تضم إلى جانب العنصـرِ العربي أجناسًا أخرى كالنَّـبَطِ[3] الذينَ ظلوا فِـي مرتبة أدنَى بعد العرب والفرس محتقرين من كليهما وممتهنين للزراعة وبعض الحِرَفِ الدنيا.

ولم تَـخْلُ البصـرةُ من طبقات أخرى من الكادحينَ من العبيد المكْدِينَ أمثال الزنج الذين وَفَـدَ معظمهم من ساحلِ إفريقيا الشـرقي، وعملُوا لدَى أصحاب الأراضي والبساتين، وما زالتْ هذهِ الطبقةُ تتضخم حتى شكلتْ خطورةً على المجتمع البصـريِّ، بلْ هَددتِ الخلافة العباسية بمجموعةٍ مِنَ الثوراتِ أخطرها: ثورةُ الزنج المشهورة فِـي القرن الثالثِ الهجريّ (255-270هـ).

ومن هذه الطبقات التي كانت تسكن البصـرة طبقةُ «الـزُّطّ[4]» وطبقة «الروم»، ورغمَ قِلةِ هذَا العنصر الأخير فِـي البصـرةِ، فقد كانَ للثقافة اليونانية دور فِـي تكوينها، ومعلومٌ أنها ترجع بجذورها إلى زمنِ الإسكندرِ المقدوني، ومن ثم فقد طبعَتِ الحياةَ بطابَعِها وخَلَّفَتْ آثارًا واضحةً فِـي تراث البلادِ؛ حيثُ تأثرتْ بهذهِ الثقافة جوانبُ الحياة فِـي دولةِ الخلافة الجديدة وتشربتْهَا، «واستعانَتْ بِـهَا فِـي

---

(1) **أهل العالية:** تعبيرٌ يُقصَدُ به كل من كان من جهةِ نجد من المدينة وقراها وعمائرها إلى تِهامةَ، وتضم قبائل: قريش وكنانة وبجيلة وخثعم وقيس غيلان - وكانوا أكثر قبائلها عددًا - ومزينة وأسد.

(2) انظر فِـي ذلك البصرة وتكوين الجاحِظ «شارل بلات»، ص 54.

(3) أطلقَ العربُ هذا الاسم على الآراميينَ من سكان العراق أو السواد دونَ تَـمييز، وتمتد أصولُـهم إلى الكلدانيينَ سكان العراق القدماء.

(4) هم جماعات طوالُ القامة، بشرتُهم سوداء، وقيل أن أصلهم من الهند أو السند. نزحوا فِـي عصور ما قبل الإسلام إلى فارس، ثم انتقلوا إلى ثغور الخليج العربي. وقد ساعدوا المرتدينَ أثناء حروب الردة، واستقروا أيضًا فِـي العراق وقاموا بثورة أثناء الفتنة بين الأمينِ والمأمونِ واستمرت حتى خلافة المعتصم ونجحَ فِـي القضاء على فتنـتِهم.

جِدالِـهَا ضدَّ الديانات الأخرى أو فيما بينَها وبينَ الطوائف المسيحية المختلفةِ، واعتمدت الفلسفة اليونانية والمنطق خاصة فِـي تلكَ الخصوماتِ»[1].

وكان **للترجمة** التي قامَ بها النقَلَـةُ من السريان والنساطرة ولا سيّما منذ أخريات القرن الثاني وطوالَ القرنِ الثالث دور فِـي نقل علومِ اليونان الأخرى كالطبِّ والهندسة والطبيعة والحساب إلى العربيةِ.

كما كان للمعتزلةِ وبعض الفرق من المتكلمين دور مهم فِـي بعث هذه الثقافة من جديدٍ عندما اتخذوا منها وسيلة للرد على معارضِيهم.

وقد تجاوزتْ حركةُ الترجمة هذه حدودَ البصـرةِ إلى غيرِهَا من مراكز الثقافةِ فِـي العصـر العباسيِّ.

أما الفرسُ مِنَ الموالي ومن أبناء الأمصارِ فقَد كانُوا أهم عنصرٍ غير عربي عاشَ فِـي البصـرَةِ وسِوَاهَا مِنَ المدن والمراكزِ الثقافية فِـي العصـرِ العباسيِّ، حيثُ قويتْ فِـي ظل خلفاء العصـرِ شوكتُهم وسُوِّدَتْ أفكارُهم وحضارتهم بعدَ أن كانَ العنصر العربي فِـي عهد الدولة الأموية مُسوَّدًا عليهِم، فكانت مناصرة الفرسِ للعباسيين نكايةً فِـي خلفاء بني أمية من أهم أسبابِ قيام الدولة العباسيةِ، وفِـي عهدِهَا: زَاحَـمُوا العرب وتعالَوا عليهم وناصرُوهم «الشعوبية» التي حاولت الإزراءَ بالعربِ وازدراءَ أصولِهم وتقاليدهم وتراثِهم. وقد كانت البصـرة نموذجًا للمجتمعاتِ العربية التي أثرتْها الثقافة الفارسية بلغتِها وتقاليدِ أهلها وأنماط سلوكِهم، ومما استكنَّ فِـي هذه الثقافة من دياناتٍ قديمةٍ كالمزدكيةِ[2] والمانوية[1]، وطَالَـما كان لهذه الثقافة الفارسية حضورٌ بارزٌ فِـي الأدب والفكر فِـي العصـرِ العباسيِّ.

---

(1) دراسات فِـي الأدب العربي – العصر العباسي، ص 11.

(2) **الـمَزْدَكـيّـة** دينٌ ثَـنَوي منبثق من المانوية، مؤسسُهُ الزعيم الديني الفارسي **مَزْدَك** المتوفى نحو 528 ميلادي. ولد مزدك بن موبذان فِـي بلاد فارس واختُلِفَ فِـي عام ولادته فقيلَ 467 وقيل 487م. وقادَ حَركةً اشتراكيّة مناهضة للزَّرادشتية السائدة فِـي عهده، وراح يناقش قضيةَ الظلمة والنور؛ حيث يرى أن امتزاجهما هو الذي تمخضَ عنه نشأة

3 – بَغدَادُ:

فِـي سنةِ 145هـ أنشأ الخليفة «أبو جَعفر المنصور» مدينةَ «بغداد» على نهر دجلةَ وسماها «دارَ السلام» فانتقلَ إليها مِنَ الكوفة خلفاءُ الدولة بعد المنصور، ولقربِ موقعها من الكوفة كانَ لهذهِ الأخيرةِ تأثير كبير على الحياةِ الفكرية والأدبيةِ فِـي بغداد، وحتى قبيلَ نهاية القرن الثاني بقليلٍ – أي مع بداية عهدِ الخليفة المأمون – كانَ علماء الكوفة من رُوَاةِ الأدبِ، وعلماء اللغة أمثال «المفضلِ الضبِّي» و«الكِسائي» و«أبي العباس ثعلب» هم أصحاب الحظوة المقدمينَ فِـي قصور الخلفاء والمختارين لتربية أبنائِهم[2].

وَمَا زالَ الطابَعُ الكوفِـي غالبًا على بغدادَ حتى بداية القرن الثالث الهجري عندمَا بدأ الطابع البصري يغزُو الحياة فِـي بغداد، وَمَا زالَ يتسلل إليها فِـي عهود «المأمونِ»[3]، و«المعتصم»[1]،

الدنيا صُدفةً، وأسّس دينه الذي دعا إلى المشاركة فِـي الأموال والنساء، وانتشرت انتشارًا واسعًا فِـي فارس فِـي أواخر القرن الخامس للميلاد وبخاصة بعد أن اعتنقها ملك الفرس قُباذ الأول. لكن الكهان الزرادشتيين والنبلاء الفرس ما لبثوا أن ثاروا عليها، فما كان من قُباذ إلاّ أن ارتدّ عنها، وقتل مَزْدَك وأتباعَه.

ومِـمَّا رَآه مَـزْدَك أن الناس سواسية، ولما كان المال والنساء من أهم ما يفّرق الناس كان ذلك مما تجب فيه المساواة والإشتراك. قال صاحب الملل والنحل: "أحلَّ النساءَ وأباح الأموال وجعل الناسَ شركةً فيه كاشتراكهم فِـي الماء والنارِ والكلأ" .

(1) **المانوية** –أو المنانية كما ذكر ابن النديم فِـي الفهرست – ديانة تُنسَبُ إلى **مَـانِـي** المولود فِـي عام 216 م فِـي بابل، والذي ظهر فِـي زمان شابور بن أردشير وقتله بهرام بن هرمز بن شابور. وزعم أن الوحيَ أتاه وهو فِـي الثانيةَ عشرةَ من عمره، وكانَ فِـي الأصلِ مجوسيًا عارفًا بمذاهبِ القوم، وكان يقول بنبوةِ المسيح ولا يقول بنبوةِ موسَى فنَحَا مَنحىً بين المجوسية والمسيحية. . حاول ماني إقامة صلة بين ديانته والديانة المسيحية وكذلك البوذية والزرادشتية، ولذلك فهو يَعُـدّ كلًا من بوذا وزرادشت ويسوع أسلافًا له، وقد كتب ماني عدة كتب من بينها إنجيله الذي أراده أن يكون نظيرًا لإنجيل عيسى. أتباع المانوية هم من تُعُورِفَ عليهم أولًا بإطلاق لقب الزنادقةِ.

(2) من المعروف أن المفضل الضبِّي كان معلمًا للخليفة المهدي، وأن الكسائي كان معلمًا للأمين ومؤدبًا له .

(3) ولي الخلافة سنة 198هـ/ 813م .

و«الواثق»[2]، و«المتوكل»[3] حتى سيطر على مجالسِ الخلفاء وكبار رجال الدولةِ، وفِـي بغدادَ ذاع صيتُ علماء عظام أمثال «أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ»، و«أبي العباس المبرِّد».

وهكذا تلاقت فِـي بغداد الثقافتانِ البصـريةُ والكوفيةُ، وامتزجت هاتان بعناصرَ أخرَى وافدَة من الثقافاتِ الأخرى؛ وأفضى ذلك كله إلى ثقافة جديدة تمثل بذاتها الطابَع البغدادِيّ.

ومن ثَم، ظهرتْ فِـي تاريخ الثقافة العربية مذاهبُ بغدادية فِـي النحو واللغة والأدب والفِكر أسهمت مع مذهبَي الكوفة والبصـرة فِـي رسمِ ملامحِ خريطة الحضارةِ الإسلامية فِـي العصر العباسيِّ.

وفِـي بغدادَ، كانَ لمظاهر الحضارة الفارسية حضور طاغٍ، وبخاصةٍ فِـي نظم العيش والإدارة. حتى إن القلنسوةَ الفارسيةَ أصبحت أكثر شيوعًا من العِمامةِ العربيةِ.

كانتْ بغداد مجتمعًا مفتوحًا مُستوعبًا لأجناسٍ شتَّى من البشر أمثال الفرسِ والترك، وما زالَ هذَا الجنس الأخير يَـفِدُ على بغداد مع بداية العصـرِ العباسي الثاني حتَّى استكثر منهم الخلفاء فِـي قصورِهم واستوزرُوهم وآثرُوهم للخدمة والجيش على غيرهم.

وبلغ مِنْ قوةِ **التركِ** أن سيطرُوا على الخلفاء أنفسهم فانتقلَ نفوذُهم إليهم، فكانوا يولونَ من يشاءونَ ويَعزلونَ مَن يَشاءونَ مِنَ الخلفاء ويسيطرونَ على الحكومة والمرافق، حتى إنَّ أولياءَ العهودِ وأبناء الأسرة العباسية كانوا يَستعينونَ بِـهم للوصول إلى عرشِ الخلافة والتغلبِ على منافسِيهم[4] فكانُوا بذلكَ مصدرَ متاعِب كثيرة للخلافةِ، وسَببًا من أسبابِ انهيار الدولةِ العباسيةِ.

---

(1) ولي الخلافة سنة 218هـ/ 833م .

(2) ولي الخلافة سنة 227هـ/ 842م .

(3) ولي الخلافة سنة 232هـ/ 247م .

(4) الجاحظ، د. أحمد الحوفي، دار المعارف، مصر، ص 7 .

لقد كانتْ بغداد قصبةَ الدولة العباسية، وما إن عُمِّـرَتْ حتى تقاطرَ إليها الناس للارتزاق بالتجارةِ أو الصناعة أو الأدب أو الشعرِ وأسباب الملاهي؛ فالتقى فيها العربي والفارسي والرومي والنبطي والتركي والصقلي والهندي والبربري والزنجي، وفيها المسلم والنصـراني واليهودي والصابئ والسامري والمجوسي والبوذي وغيرهم. وما زالت البصـرة والكوفة مجتمع أهل الأدب والعلم والشعر حتى عُمِّـرَتْ بغدادُ فأصبحت بما استجد من عمرانها هي وحدَها أُمَّ المدائنِ الإسلامية وبؤرةَ العلم ومجتمع العلماء، وما برحتْ تمارس دورها الحضاري حتى شاركتْها فِـي ذلك «القاهرةُ» و«قرطبةُ» و«دمشق» و«القيروان» وغيرُها[1].

(1) انظر: تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان، مراجعة: د. شوقي ضيف، دار الهلال، مصر، 2/ 20-21.

مَلامِحُ الحياةِ فِـي العصرِ العباسِيّ

أولًا- الحياة الاجتماعيةُ:

ثمة متغيرات عامة وواضحةٌ يمكن ملاحظتها فِـي الحياة العباسية، ولعل **قولة الجاحظِ: "دولة بني العباس أعجميَّة خُراسَانية، ودولة بني مروانَ عَربيةٌ أعرابيةٌ"**(1) تَختزل تلكَ الطوابعَ العامة – أو أهمها – التي طبعتِ الحياة العباسية، فإذا كانت الدولةُ الأموية قد ظلت محافظةً على قيم الحياةِ العربيةِ، فإنَّ دولةَ بني العباس، قامتْ على أسنةِ الفرسِ ورِمَاحهم حسبَما يَرَى بعضُ المؤرخينَ، ومِن ثَم عَظُمَ دورُ الموالي أوالأعاجِمِ، وزادَ نفوذهم عما كانوا عليه فِـي دولةِ بَني أميةَ، كما أن التداخلَ أو التفاعُلَ الحضاريَّ والثقافِـي بين العرب وغيرهم من الأممِ، قد زاد فِـي دولة بني العباسِ، وكانَ له تأثير واضح فِـي ملامح الحياة العباسيةِ إنْ سَلبًا وإن إيجابًا، وزدْ إلى ذلكَ حالةَ الثراء المادِّي، عندَ سَراةِ المجتمعِ العباسيِّ، ناهيكَ بهامشِ الحرية الذي سمحَ به خلفاء بني العباس وولاتُهم، بل مارسَه بعضهم، فخرجُوا عن قِيَمِ الإسلام حينًا، وعَـبُّوا مِنْ ملاذِّ الحياة الجديدة، ومفاتنِها أحيانًا .. ولا ريبَ أن تلك الطوابعَ العامة غيرتْ ملامحَ الحياة عن ذي قبلُ، وقد تجلت معالم ذلك التغير فِـي الحياة الاجتماعيةِ والعلميةِ والأدبية على سواء، وكانَ بعضُها سَلبيًا (الشعوبية والزندقة، واللهو والمجون، والترف والثراء)، وبعضُها إيجابيًا (الزهدُ، وازدهارُ العلومِ ونهضتُها، وازدهارُ الأدب شعرًا ونثرًا)، حتى غَدَا المجتمع العباسيُ مجتمعَ النقائضِ والمتباياتِ، **وقد صَوَّرَ** الأستاذ أحمد أمين ذلك المجتمعَ خير تصوير حين قالَ: "وَتُنصِفُ إنْ أنتَ اعتقَدتَ أن الحياةَ كانت ذاتَ صنوفٍ وألوانٍ، وأنَّ المدنيةَ العباسيةَ كانت ككلِّ المدنياتِ: مَسجدٌ وحانة وقارئٌ وزامرٌ، ومتهجدٌ يترقب الفجرَ ومُصطبحٌ فِـي الحدائق وَسَاهِرٌ فِـي تهجدٍ، وسَاهرٌ فِـي

(1) البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، ط7، مكتبة الخانجي – القاهرة، 1998م: 3/ 366.

طربٍ، وتخمةٌ من غنى، ومسكنةٌ من إملاقٍ، وشَكٌّ فِـي دينٍ، وإيمانٌ فِـي يقينٍ، كل هذَا كانَ فِـي العصر العباسي وكل هذا كانَ كثيرًا"[1]. وهذه المقولة تشير إلى أمور عدَّةٍ:

1- انتقالُ الحياة فِـي العصر العباسي من البداوة إلى المدنية.

2- انتشار دور العبادة، أي ازدهار الثقافة الدينية، يقابلها ظهورُ الانحلالِ الديني وظهور فرقة بعيدة عن الدين وهي فرقة الزنادقةِ والشعوبيةِ.

3- انتشارُ الغناءِ والطرَبِ.

4- هناكَ تفاوتٌ مَادي وطبقي داخل المجتمع العباسيِّ.

وكان لهذهِ المتغيرات ظِلالٌ جَليةٌ فِـي الأدب العباسي شِعرًا ونثرًا، ولنبدأْ بالوجهِ السلبي لتلك المتغيرات، وأهم تجلياتهِ (الشعوبيةُ – الزندقةُ – المجونُ).

أولًا- الشُّعُوبيَّـةُ:

كانتِ الشعوبيةُ إحدَى تجلياتِ الامتزاجِ الحضاري بين العربِ والأعاجم، والكلمةُ بهذَا البناءِ الصَّرفِـي نسبةٌ إلى الشُّعُوبِ على غير قياسٍ، أو مصدر صناعي دالٌّ بالغلبة على مَنْ يعادي العربَ ويحتقرُهم، ففِـي لسان العربِ: "وقد غلبتِ الشُّعوبُ، بلفظ الجمعِ، على جيلِ العَجَمِ، حتى قيلَ لمحتَـقِـرِ العرَبِ: شُعُوبِـيٌّ، أضافُوا إلى الجمع لغلبتهِ على الجيل الواحِدِ، كقولِـهم أنصاريٌّ، والشُّعُوبُية: فرقة لا تُفَضِّلُ العَربَ على العجَمِ، والشعوبيُّ: الذي يُصَـغِّـرُ شأنَ العربِ ولا يرى لهم فضلًا على غيرهم"[2].

وقَدْ تطورت الكلمةُ من الدلالةِ على أهل التسوية إلى الدلالةِ على نزعة العداءِ للعربِ (حياتِهم وتقاليدِهِم وعاداتِهم، ولُغَتِهِم، وأحيَانًا دِينِهِم) مِنْ بَعضِ بَني الأجناسِ الأخرَى كالفرس والنبط والأتراك، أو غَيرِهم من الأجناس التي فتحَ المسلمونَ بلادَهم، فشملتهم الدولة الإسلاميةُ، وصارُوا من رَعاياهَا رَاضينَ أو رَاغِمينَ.

---

(1) ضحى الإسلام: 1/ 179.

(2) ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطبعة السادسة 2008م، 8/ 87.

ولا ريبَ أنَّ مِنْ عواملِ ظهورِ تلكَ النزعة العدائية للعربِ، أن بعضَ مَنْ دخَلُوا الإسلامَ مِن الأعاجمِ لَمْ يدخلوه مقتنعينَ، فأسلمُوا ولَـمَّا يدخلِ الإيمان فِـي قلوبهم، ومن ثم ظلوا محتفظينَ بعقائدِهم المنحرفة كالزرادشتيةِ والمانويةِ والمزدَكيةِ والمجوسية وغيرها، كما احتفظوا بتعصبِهم لجنسِهم، واحتقارهم للعرب، فلم يَرَوْا فيهم غيرَ بَدْو أو رعاةِ غنمٍ أدالُوا من حضارتهم وعزهم، وقد ظل ذلكَ الحقد حبيسَ نفوسهم، لا تسمح لَه سَطوةُ خلفاء بني أميةَ وقوتهم بالظهور، حتى وجدَ مُتنفسًا أثناء الحكم العباسي، حيثُ تعاظم نفوذ الموالي من جهة، وأسعدَهم هامشُ الحريةِ الذي أتاحه الخلفاء منْ جهة أخرى.

ومعنَى ذلكَ أن تلك النزعة ليستْ وليدةَ العصر العباسي، وإنما نمَتْ جذورُها زَمنَ بني أميةَ، فقد قالَ الأصفهانيُّ فِـي أغانِيهِ عَنِ الشاعرِ الأمويِّ إسماعيلَ بنِ يَسار النَّسائِي: "..وكانَ إسماعيلُ شُعوبيًّا شديدَ التعصبِ للعجم، وله شعرٌ كثير يفخرُ فيه بالأعاجِمِ"، وأنه: " دَخَلَ عَلى هِشَامِ بنِ عبدِ الملكِ فِـي خِلافتِهِ وهوَ بالرُّصَافةِ جَالسٌ على بِركَـةٍ له فِـي قصره، فاستنشدَه وهوَ يرى أنهُ يُنشدُه مديحًا له؛ فأنشدَه قصيدته التي يفتخر بها بالعجمِ:

يَا رَبْـعَ رَامةَ بِالعلـيَاءِ مِـنْ رِيمِ هَلْ تَـرْجِعَنَّ إِذَا حَـيَّيْتُ تَسْلِيمِـي
مَا بَالُ حَيٍّ غَدَتْ بُـزْلُ الْـمَطِيِّ بِهِمْ تَـخْدِي لِغُربَتِهِم سَيْرًا بِتَـقْـحِـيمِ
كَأَنَّـنِي يَومَ سَارُوا شَارِبٌ سَلَبَـتْ فُـؤَادَهُ قَـهْـوَةٌ مِنْ خَـمْـرِ دَارُومِ

حتى انتهَى إلى قَولِهِ:

إِنِّـي وَجَدِّكَ مَا عُودِي بِـذِي خَـوَرٍ عِنْدَ الحِفَاظِ وَلَا حَوْضِي بِمَهْـدُومِ
أَصْلِي كَرِيمٌ وَمَـجْدِي لَا يُقَاسُ بِـهِ وَلِي لِسَانٌ كَحَدِّ السَّيْفِ مَسْـمُـومِ
أَحْـمِي بِهِ مَـجْدَ أَقْوَامٍ ذَوِي حَسَـبٍ مِنْ كُلِّ قَـرْمٍ بِتَاجِ الـمُلْكِ مَعْـمُـومِ
جَحَاجِـحٍ سَـادةٍ بُـلْـجٍ مَـرَازِبَـةٍ جُـرْدٍ عِتَاقٍ مَسَامِيحٍ مَـطَـاعِـيمِ
مَنْ مِثْلُ كِسْرَى وَسَابُورِ الجنودِ مَعًا وَالـهُرْمُـزَانِ لِفَخْرٍ أَوْ لِتَـعْـظِـيمِ

أُسْدُ الكَتَائِبِ يَوْمَ الرَّوْعِ إِنْ زَحَفُـوا وَهُمْ أَذَلُّـوا مُلُوكَ التُّرْكِ وَالـرُّومِ
يَمْشُون فِـي حَلَقِ المَاذِيِّ سَـابِـغَـةً مَشْيَ الضَّرَاغِمَةِ الأُسْدِ اللَّهَامِـيمِ
هُنَاكَ إِنْ تَسْأَلِـي تُـنْبَـيْ بِـأَنَّ لَـنَـا جُـرْثُومَـةً قَـهَـرَتْ عِـزَّ الجَـرَاثِـيمِ

قَالَ: فَغَضِبَ هِشامٌ وقالَ لَه: يَا عَاضَّ بَـظْـرِ أُمِّـهِ! أَعَـلَـيَّ تَفخَـرُ وَإِيَّـايَ تُنشِدُ قَصيدَةً تَـمْدَحُ بِـهَا نَفْسكَ وَأَعْـلَاجَ قَوْمِكَ!! غُطُّوهُ فِـي الْـمَاءِ فَـغَطُّوهُ فِـي البِـرْكَةِ حَتَّى كَادَتْ نَـفْسُهُ تَـخْرُجُ، ثُـمَّ أَمَـرَ بِإِخْرَاجِهِ وَهو بِشَرٍّ وَنَفاهُ مِنْ وَقتِهِ، فَـأُخرِجَ عَنِ الرُّصافةِ مَنفيًا إِلَى الحِجَازِ. قَالَ: كَانَ مُبْتَـلًى بِالعَصبيةِ لِلعَجَمِ والفخْرِ بِهم. فكَانَ لَا يَزالُ مَضْرُوبًا مَـحْـرُومًا مَطْـرُودًا"[1].

وَيدلُّكَ تصرفُ هشام علَى أن نزعةَ العداء للعربِ لم تتجاوز إطارَ الفردية إلى الاتجاه الجماعيِّ الذي يشكل ظاهرةً واضحةً؛ ومن ثـمَّ لم يظهرْ مصطلح (الشعوبية) إبانَ الحكمِ الأمويِّ، وإنما ظهر زمنَ العباسيينَ حينما استعلنَتِ الشعوبيةُ وقَويتْ، وصَارت ظاهرةً واضحةً فِـي الحياة العباسيةِ، وذلك ما يؤكده الأستاذُ **أحمد أمين** حينَ يرى أن الشعوبية زمنَ بني أمية لم تكن بحاجةٍ إلى اسم؛ لأنها "كانت نزعةً خفيةً لا تستطيع الظهورَ، وَإذا ظَهرتْ أُخمِدَتْ، والحاجَةُ إلى الاسْم إنما تَكون بَعد أن يَتخذَ المبدأُ شكلَ عَقيدة عامةٍ أو حزبٍ .. وأقدم ما وصلَ إلينَا مِنَ الكتُبِ التِي استعمَلَتْ لَفْظَ الشعوبيةِ كِتَاب (البيان والتبيينِ) للجاحِظِ"[2].

ومهما يكنْ من أمرٍ فإنَّ الشعوبيينَ لـم يكونوا ذَوِي نهجٍ واحدٍ، وإنما سلكُوا مسالِكَ متباينةً منها الخفِـي ومنها الجلِـيُّ، كما أنهم لم يكونوا درجةً واحدةً فِـي فِـي عدائهم للعربِ، حتى ليمكن القولُ إن الشعوبيةَ شُعوبياتٌ وأنماطٌ، كما أنها درجاتٌ:

وأولُ تلك الدرجات الدعوةُ إلَى المساواة بالعربِ، وقد عُرِفَ دعاتها بأهل التسويةِ، وهؤلاء هم أولى الناسِ باسم الشعوبية؛ لأنهم يقولون (بالشعوبِ) أي يقولون بأنه لا فرقَ بين الشعوبِ من عربٍ

(1) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة 2010م، 4/ 412، 423.

(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام 1/ 70.

وغيرهم فِـي الشرف والخسةِ، فكان أمامهم أن يتسمُوا باسمٍ مشتق من المساواةِ أو باسم مأخوذٍ من الشعوبِ، يَـدُلُّ على أن الشعوبَ سواءٌ، فاختاروا الثاني وسُمُّوا (الشعوبية)؛ ولذلك يقولُ ابنُ عبد ربه فِـي العقد الفريدِ: "الشعوبيةُ وهُم أهلُ التسويةِ"[1]، لكن هذا المصطلحَ غلبَ علَى مَن يُعادِي العربَ أو يُعادِي دينَهم (الإسلام).

وجلـيٌّ أن مثلَ هذهِ الدعوة لا تثريبَ عليها؛ ذلكَ أنها توافقُ مبادئ الإسلام وأصولَه، فهو دين عام للعرب والعجم، والإنس والجن، ومعيار التفاضل فيه التقوى والعمل الصالح، قال تعالَى:﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**﴾ (الحجرات: 13)، وقال رسول الله ﷺ: "الْمُسْلِمُونَ تَتَكَافَأُ دِمَاؤُهُمْ وَيَسْعَى بِذِمَّتِهِمْ أَدْنَاهُمْ وَيَرُدُّ عَلَيْهِمْ أَقْصَاهُمْ وَهُمْ يَدٌ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ، أَلَا لَا يُقْتَلُ مُسْلِمٌ بِكَافِرٍ وَلَا ذُو عَهْدٍ فِـي عَهْدِه"[2]، وقال كذلك: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أَعْجَمِيٍّ وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلَا لِأَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلَّا بِالتَّقْوَى، أَبَلَّغْتُ؟) قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"[3]، وممن نادَوْا بهذه المساواة الشاعرُ أبو يعقوبَ الـخُرَيْميّ، فلم يكن جادًا فِـي تعصبهِ على العرب، وخصومتهِ لَهم، وإنما كان من دعاة التسويةِ بينَهم وبينَ الشعوبِ الأخرَى الداخلَةِ فِـي الإسلامِ[4].

وثمةَ درجة **ثانية من درجاتِ الشعوبيةِ**، تمثلتْ فِـي الحطِّ من شأنِ العربِ، واحتقارِ أنسابهم، وعاداتهم وتقاليدِهم، بل نُـظُمِ حياتِهم قاطبةً، ويمكن تسميتُها **(الشعوبيةَ الاجتماعيةَ)**، حيثُ نَـرَى بعضَ الشعُوبيينَ يسلبونَ العربَ كلَّ فضيلةٍ، وينسبونَ إليهم كلَّ نقيصةٍ، وما من ريبٍ فِـي أن تلكَ

---

(1) انظر السابق: 1/ 68.

(2) رَوَاهُ أَبُو دَاوُد وَالنَّسَائِيّ عن علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وهو حديث صحيح لغيره فقد روي من وجه مرسلا عند أحمد ولكن له طرقا أخري.

(3) رواه أحمد (22978) عَنْ أَبِي نَضْرَةَ، وصححه الألباني فِـي "الصحيحة" (6/ 199).

(4) انظر د. علي نجيب عطوي: الشعر فِـي العصر العباسي مظاهره وأهم اتجاهاته، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر – بيروت، لبنان 1413هـ – 1993م، ص42.

الحركةَ كانت فِـي بعض وجوهِهَا رد فعل لتعالِي العربِ على الموالِي وتطاولِـهم عليهم، فهذا بشارُ بنُ برد يُنشد شِعرًا، فيسمعه عَربي، فيقول له: ما للموالِي وللشعر؟!، فيجيبه بشارٌ قائلًا:

أَحِينَ كُسِيتَ بَعْـدَ الْعُـرْي خَـزًّا ... ونَادَمْتَ الكِـرَامَ عَلَى الْعُـقَارِ
تُـفَاخِـرُ يَا بْـنَ رَاعِيَـةٍ وَرَاعٍ ... بَـنِي الأَحْـرَارِ حَسْبُكَ مِـنْ خَسَارِ
تُـرِيغُ[1] بخُطبـةٍ كَسْرَ الْـمَوَالِـي ... وُيُـنْسِيكَ الْـمَكَارِمَ صَيْـدُ فَـارِ
وَكُـنْتَ إِذَا ظَمِئْتَ إِلَى قَـرَاحٍ ... شَـرَكْتَ الْكَلْبَ فِـي وَلْـغِ الإِطَـارِ
وَتَـغْـدُو لِلقَنَافِـذِ تَـدَّرِيهَا ... وَلَـمْ تَعْـقِلْ بِـدُرَّاجِ الدِّيَـارِ
وَتَـتَّـشِـحَ الشِّـمَالَ لِلَابِسِيهَا ... وَتَـرْعَى الضَّأْنَ بِالبَلَدِ القَفَارِ

ويقول أبو نواس:

إِذَا مَـا تَـمِيمِـيٌّ أَتَـاكَ مُـفاخِـرًا ... فَقُلْ عَـدِّ عَنْ ذَا، كَيْفَ أَكْلُكَ لِلضَّبِّ؟
تُـفَاخِـرُ أَبْـنَـاءَ الملُـوكِ سَفَاهَـةً ... وَبَـوْلُكَ يَـجْرِي فَـوقَ سَاقِكَ وَالكَعْبِ
إِذَا ابْـتَدَرَ الناسُ الفِعَالَ فَخُـذْ عَصًا ... وَدَعْـدِعْ بِمِعْزَى يَا بْـنَ طَالِـقَةِ الـزَّرْبِ
فَنَحْنُ مَلكْـنَا الأرضَ شَـرْقًا وَمَـغْـرِبًا ... وَشَيْخُكَ مَـاءٌ فِـي الترائِبِ والصُّلْبِ

والأشعار التي قيلت فِـي ذَمِّ العربِ واحتقارهم أكثرُ مِنْ أن تُحصَى، وللشعوبيينَ فِـي ذلك أقوال كثيرة كذلكَ، فقد نقل أبو حيان التوحيديُّ عنِ الجيهانيِّ أنه ألفَ كتابًا سبَّ فيه العربَ وتناولَ جوانب من حياتهم بالذمِّ والشتمِ، ومِنْ أقوالهِ فِـي ذم العرَبِ: "...يأكلونَ اليرابيعَ والضِّبَابَ والجرذانَ والحياتِ، ويتعاورُونَ ويتهاجَوْنَ ويتفاحشُونَ، وكأنهم قد سُلخُوا من فضائل البشر ولبسوا أُهُبَ الخنازِيرِ"[2]، ويقول أبو الفرج الأصفاني عن الشاعرِ الشعوبِـيّ **ديكِ الجِـنِّ**: "وكان شديدَ التشَعُّبِ

(1) تُريغ: تريد.

(2) أبو حيان التوحيدي: الإمتاع والمؤانسة، تحقيق أحمد أمين، وأحمد الزين، ط2، 1/ 79، والجيهاني: نسبة إلى جيهانَ مدينة بخراسانَ.

والعصبيةِ على العرَبِ، يقول: ما للعربِ علينَا فضلٌ، جمعتنا وإياهم ولادةُ إبراهيم ﷺ، وأسلمنَا كَما أسلموا، ومن قتلَ منهُم رَجلًا منا قُتِلَ به، ولم نجدِ الله عز وجل فضَّلهم علينَا، إذ جمعنَا الدِّينُ"[1].

على أن الشعوبيينَ قدِ اتخذُوا مَسلكًا آخرَ غيرَ الشعر والأقوال، فألفوا كُتبًا فِي مثالبِ العَربِ، ومناقبِ العجَمِ، فألف سعيد بن حميد البَخْتَكان كتاب (انتصافُ العجَم من العرب) وكتاب (فضل العجمِ على العرب) وألف الهيثمُ بنُ عَدِيٍّ عدة كتب فِي المثالب، منها: (كتابُ المثالب الصغير)، و(كتاب المثالب الكبير)، و(كتاب مثالب ربيعةَ)، و(أسماءُ بغايَا قريش فِي الجاهلية، وأسماءُ مَنْ وَلَدْنَ)، وألف عِلَّانُ الشعوبيُّ كتابَ (الميدانُ فِي المثالِبِ)، وألف أبو عبيدةَ مَعمرُ بنُ المثنَّى – وهو مِن يَهودِ فَارس – كتاب (لصوص العرب)، و كتاب (أدعياءُ العربِ)، وكتاب (فضائلُ الفرسِ)، كَما فعلَ سَهلُ بن هَارونَ نَحوًا من ذلكَ، ناهيكَ بوضعِ القِصصِ المكذوبة، بلْ بلغَ الأمرُ وَضْعَ الأحاديثِ ونسبتَها إلَى رسولِ الله ﷺ[2].

أمَّا **الدرجةُ الثالثةُ** من درجاتِ الشعوبيةِ – ويمكن تسميتُها **(الشعوبيةَ الدينية)** – فهي أشدُّها غلوًا وتطرفًا، لأنها جاوزتِ العربَ وحياتَهم إلى الطعنِ فِي دينهم (الإسلام) والانحراف عن مبادئه وأصوله، حتى صارت مُسَاويةً لحركةِ الزندقة أو الإلحادِ، وإذا كانَ د. طه حسين فِي كتابه حديثُ الأربعاء يُرجِعُ حركةَ الزندقة كلَّها أو معظمها إلى حركةِ الشعوبيةِ، فإن د. عبد الرحمن بَدَوي – وإن خالف د. طه – فإنه يؤكد وثاقةَ العلاقةِ بينَ الحركتينِ[3]، وفِي كلام الجاحظِ مَا يؤكد تلك العلاقةَ حينَ

(1) الأغاني: 14/ 51، **وديك الجن** لقبٌ غلبَ عليه، واسمه عبد السلام بن رغبان بن عبد السلام بن حبيب بن عبد الله بن رغبان بن يزيد بن تميم، أسلم جده تميم يوم مؤته. وقَد اختلفتِ الروايات الواردة في سببِ تسميتهِ بهذَا الاسمِ، فقيل إنَّ سبب تسميته بديك الجن عائدٌ إلى أنّه كان صاحبَ عَينينِ خضرَاويْنِ تُشبهانِ ألوانَ الديكِ، وقيلَ أيضًا إنّه سُمِّي بهذا الاسمِ لرثائهِ ديكَ أبي عمرو بن جعفر، ومنهم من اتهمه بالجنونِ وقال إنّه كانَ مجنونًا يُقلِّدُ صوتَ الديكِ.

(2) انظر أحمد أمين: ضحى الإسلام – الجزء الأول من ص 18 حتى ص88، ولقد تصدّى للشعوبية فريق من الأدباء أمثال الجاحظ وابن قتيبة. وللجاحظ مقالات وردود على الشعوبية فِي كتابه البيان والتبيين خاصة، كما أن لابن قتيبة مبحثًا سماه كتاب العرب أو (الرد على الشعوبية).

(3) انظر د. عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد فِي الإسلام، سينا للنشر، الطبعة الثانية 1993م، ص 36.

يقولُ: "إنَّ عامةَ مَنِ ارتابَ بالإسلامِ إنما كانَ أولُ ذلكَ رأيَ الشعوبيةِ والتماديَ فيه وطولَ الجِدَالِ المؤدِّي إلَى الضلالِ، فإذَا أبغضَ شيئًا أبغضَ أهلَه، وإنْ أبغضَ تِلكَ اللغةَ أبغضَ تِلْكَ الجزيرةَ، وإذَا أبغضَ تِلْكَ الجزيرةَ أحبَّ مَنْ أبغضَ تلكَ الجزيرةَ، فلَا تَزالُ الحالاتُ تَنتقِلُ بهِ حتَّى يَنسلِخَ من الإسلامِ، إذْ كَانَتِ العربُ هِيَ التي جاءت بهِ، وهيَ السلفُ والقدوةُ". وعبارةُ الجاحظِ هنا تصورُ بدقةٍ العلاقةَ بين الزندقةِ والشعوبيةِ بوصفِهمَا تَيارًا معاديًا للعربِ والإسلام معًا.

ولعلَّ الواشجةَ الوثقَى بين الشعوبية الدينيةِ والزندقةِ تُسوِّغُ لنَا الانتقالَ إلى الحديث عن التيارِ الثانِي منَ التيارات الناجمةِ عَنِ امتزاجِ العربِ بالعجمِ، عنيتُ تيارَ الزندقَةِ ففِـي الحديثِ عَنْ أحدِهمَا حديثٌ عَنْ شَبيهِهِ.

ثَانيًا- الـزنـدقَـةُ:

اختلفَ الباحثونَ فِـي أصل هذه الكلمة **(زندقة)**، وأقربُ الأقوالِ إلى الصحةِ أنَّ هذهِ الكلمةَ: "فارسيةٌ معربة عنْ **زِندِيك** فإنّ الكلمةَ كانت تطلق بمعناها الأصلي على المؤمنِ المخلِصِ من أتباعِ مَانِـي. ولما كانَ الـزَّرَادَشْتِيَّـةُ يعدون المانويةَ ملحدينَ خَارجينَ على الـزَّرَادَشْتِيَّـةِ، فقد أُطلقَتْ عندَهم على كل ملحدٍ لا يؤمن بالدين الحق. وفِـي ذلكَ يقول "براون" شارحًا له ومدللًا على هذا المعنَى: "كلمةُ زنديق صفة فارسيةٌ معناها متَّبِـعُ الزندِ أي الشروحِ القديمة للأفِسْتَا وهوَ كِتابُ زَرَادُشْت المفضل له على النصِّ المقدس. وقد سُمِّيَ المانويةُ زنادقةً لميلهم إلى تأويل الكتبِ المقدسة للديانات الأخرى وشرحها حسبَ آرائهم وأهوائهم"[1].

(1) انظر د. عبد الله سلوم السامرائي: الشعوبية حركة مضادة للإسلام والأمة العربية، مكتبة جزيرة الورد، القاهرة، الطبعة الأولى 2012م، ص 75.

كانت الـزَّرَادَشْتِيَّـةُ الديانةَ الرسمية طَوَالَ فترة الساسانيين التي امتدت من 226م إلى 651م، ومرتْ فترات محدودة اعتنقَ خلالها الملك سابورُ المانويةَ بضعَ عشرَةَ سنةً، واعتنق الملكُ **قُـبَاذ** الْـمَزدَكيةَ حقبةً مِنَ الزمَنِ[1].

وإذَا كانتِ الزندقَةُ قدِ ارتبطت بِـمَاني ارتباطًا زمنيًّا وفكريًّا، بوصفه خارجًا على الدينِ الرسميِّ، فإنَّ المصطلحَ قد تُوسَّعَ فِـي استخدامهِ حتَّى صارَ يُطلَقُ على المانويةِ وغيرِهَا، فأُطلِقَ على الدَّهرييِنَ[2]، والمزدكييِنَ، وكل من يؤمنُ بالثنويةِ، والماجنينَ، وعلَى من ينكر الألوهيةَ أو يتظاهر بالظرفِ، مما جعلَ د.عبد الرحمن بدوي يقول: "فلفظُ (زنديق) غامضٌ مشتركٌ قد أطلقَ على معان عدةٍ، مختلفةٍ فيمَا بينَها علَى الرغم مما قد يَجمَعُ بينَها من تشابهٍ، فكان يُطلَق على من يؤمنُ بالمانوية ويثبت أصلينِ أزليينِ للعالم: هما النور والظلمة. ثم اتسعَ المعنَى مِن بَعْـدُ اتساعًا كبيرًا حتى أُطلِـقَ علَى كل صاحبِ بدعةٍ، وكُلّ ملحدٍ، بلِ انتهَى بهِ الأمرُ أَخيرًا إلى أن يُطلق على من يكونُ مَذهبه مخالفًا لمذهبِ أهلِ السنةِ أو حتى مَنْ كان يحيَا حياةَ المجونِ من الشعراءِ والكُتَّـابِ ومَن إليهِم"[3].

هذَا، وَتَنبغِي الإشارةُ إلَى أنَّ خلفاءَ بَني العباسِ قَدِ اتخذُوا الزندقةَ تُـكَأةً أو وسيلةً للتخلص من بعض خصومِهم السياسيينَ، مثلَما فعلوا مع خصومهم الهاشميينَ، فقد اتهموا أبناءَ داودَ بن علي بالزندقة، ولم يكن كل مَنِ اتُّـهِمَ بالزندقةِ زَنادقةً حقًّا[4].

كَما أنَّ مَن رُميَ بالزندقة فِـي هذا العصر كانوا طوائفَ مختلفة، **فمنهم المتكلمونَ**، مثل: ابن طالوت، وأبو عيسى الوراق، وتلميذه ابن الروانِدي[1]، وتلميذه محمد بن زكريا الرازي، وابن شَاكر، وصالح بن

---

(1) انظر السابق، ص 73.

(2) من يقولون إن الدهرَ السببُ الأولُ للوجود وأنّه غير مخلوق ولا نهائي، وتعتبر الدهريّة أن المادّة لا فناء لها، ويعدّ هذا الاعتقاد قريبًا من اعتقاد اللادينيّة والإلحاد والمادّيّة. وقال القرآنُ عنهم: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾.

(3) د. عبد الرحمن بدوي: من تاريخ الإلحاد فِـي الإسلام، ص 36، 37.

(4) انظر السابق ص 42.

عبد القدوس.. وغيرهم، ومنهم الأدباء والشعراءِ، كبشار بن برد، وحَـمّاد عَجرد، وأبان بن عبد الحميد اللاحقي، وأبو العتاهيةِ، وابنِ المقفَّعِ الذي يقول عنه الخليفةُ المهدِيّ: "ما وَجَدتُ كتابَ زندقةٍ قَـطّ إلا وأصلُه ابنُ المقفَّعِ".. وقد تعقبَ خلفاء بني العباس وولاتُـهم مَنِ اتُّهِمَ بالزندقةِ فقتلُوا كَثيرًا منهُم، كابنِ المقفعِ، وصالح بن عبد القدوس وكانَ يعتنقُ المانويةَ، وابن أبي العوجاء، وحَماد عجرد، وأبناء داود بن علي، ويعقوب بن الفضل من سلالة الحارث بن عبد المطلب، ويونس بن أبي فروة، وغيرِهم[2].

ولم يقفْ الاتهامُ بالزندقةِ عندَ الأفراد فقد اتُّـهِمَتْ أُسَـرٌ بالزندقةِ، كأسرةِ البرامكة، وقد كانَ الأصمعيُّ يتقرب إليهم ويَمدحُهم، فَلما نُـكِبُوا قالَ فِيهم:

إِذَا ذُكِـرَ الشِّـرْكُ فِـي مَـجْلِسٍ أَضَاءَتْ وُجُوهُ بَنِـي بَـرْمَـكِ
وَإِنْ تُلِـيَتْ عِـنْـدَهُمْ آيَـةٌ أَتَـوْا بِالْأَحَـادِيثِ عَنْ مَـزْدَكِ

أَمَّـا تَجلياتُ الزندقةِ عندَ شُعراءِ العصرِ العباسيِّ، فيُمكنُنَا أنْ نشيرَ بإيجاز إلى بعضِهم، مثلَ:

1 – مُطِيع بنُ إيَاس:

رجلٌ غامضٌ مختلَف فِـي نسبه، يراه بعض القدماءِ عربيًا خالصًا من بني كِنانةَ، ويَرتاب آخرونَ فِـي هذه النسبة كابنِ دُريد وابنِ حَزم، وقد رجَّحَ د. شوقي ضيف أنه مِنَ الموالي، فيقول: "كل شيءٍ فيهِ يؤكدُ أنه لَـمْ يكن عَربيًا وإنما كان من الموالي، فقد كانَ مُتحلِّـلَ الأخلاق مجاهرًا بالفسقِ والعصيانِ

(1) لابن الرواندي كتب فِـي الزندقة وإنكار النبوات، يسميها ابن النديم (الكُفريات)، وقد ضاعتْ كلها، ولم تصلنا منها إلا مقتطفات فِـي بعض كُتُبِ مَن ردوا عليه، انظر د. شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني، دار المعارف، ط7، ص 102.

(2) انظر د. شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، دار المعارف، ط11، ص 82، وكان للعلماء – ولا سيما المعتزلة – إسهام فِـي مقاومة هذا التيار المضاد للإسلام وتعاليمه انظر د. حسين عطوان: الزندقة والشعوبية فِـي العصر العباسي الأول، دار الجيل – بيروت، ص 26.

والزندقةِ الإلحادِ"[1]، لكنهم وإنِ اختلفُوا فِـي نسبهِ فقدْ أجمعُوا على زندقته، يقول الأصفهانيُّ: "كانَ مَاجنًا متهمًا فِـي دينه بالزندقةِ"[2]

وَرُغْمَ هذَا الإجماعِ، فليسَ فِـي شِعرهِ مَا يؤكدُ إيمانَـهُ بأديانِ الفُرسِ التي كانَ يبطنها، فقد ضاع كثير من شعرهِ الدالِّ علَى زندقته، غير بعض مقطوعات، وشواهد من أخباره تؤكدُ زندقتَه، ومن ذلك ميلُه إلى غُلاةِ الشيعة، وتكفيرُه أبا بكرٍ وعُمرَ، وكانَ يُـخفِـي ذلكَ إبقاء على حياته،ومما قالَه فِـي هذا:

أَمْسَيْتُ جَـمَّ بَـلَابِـلِ الصَّدْرِ دَهْـرًا أُزَجِّـيـهِ إِلَى دَهْـرِ
إِنْ فُـهْتُ طُـلَّ دَمِي وَإِنْ كُـتِـمَتْ وَقَـدَتْ عَلَـيَّ تَـوَقُّـدَ الْـجَمْـرِ
مِـمَّا جَـنَاهُ عَلَى أَبِـي حَسَنٍ عُـمَـرٌ وَصَاحِبُـهُ أَبُـو بَـكْرِ

وفِـي شعره دعواتٌ صريحةٌ قبيحةٌ إلى اقترافِ الفواحشِ والكبائرِ دونَما حياءٍ، وحَضٌّ علَى الفجورِ، وشُربِ الخمرِ، واغتنامِ الحياة فِـي الشهوات، مثلما فِـي قوله:

اخْلَـعْ عِـذَارَكَ فِـي الْـهَوَى وَاشْـرَبْ مُـعَـتَّـقَـةَ الـدِّنَـانِ
وَصِـلِ القِـيَانَ مُـجَاهِـرًا فَـالْعَيْشُ فِـي وَصْـلِ الْـقِيَانِ
لَا يُـلْهِـيَـنَّكَ غَـيْـرُ مَـا تَـهْوَى فَـإِنَّ الْـعُمْـرَ فَـانِ

وَقَـدْ رَوَى الأصفهانِـيّ فِـي أغانيهِ أن أبا جعفَر المنصور أرادَ أن يبايعَ بالخلافةِ للمَهديِّ، وكانَ ابنُه جعفَر يعترِضُ على ذلكَ، وبعدَ أنْ جمعَ المنصورُ الناسَ لهذَا الأمرِ وتكلمَ الخطباءُ والشعراءُ فِـي وَصْفِ المهديِّ وفضائلهِ، بَالَـغَ مُطيعٌ، فابتدَعَ حَديثًا للمنصورِ، فقالَ: يا أميرَ المؤمنين، حدَّثَنا فلان عن فلان أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: **"المهديُّ منا محمدُ بنُ عبدِ الله، وأُمُّـهُ مِن غيرِنَا، يملؤهَا عَدلًا كما مُلِئَتْ جَورًا"**، وهذَا

(1) د. شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص 390.

(2) الأغاني 13/ 276.

العباسُ بن محمدٍ أخوكَ يَشهَدُ على ذلكَ. ثم أقبلَ علَى العباسِ، فقال له: أَنشُدُكَ اللهَ هل سمعتَ هذا؟ فقالَ: نَعم مخافةً مِنَ المنصورِ. فأمرَ المنصورُ الناسَ بالبيعةِ للمهدِيِّ[1].

فانظرْ كيفَ يَضعُ الأحاديثَ ينافِقُ بها الخلفاءَ، ويُداهنُهم، ولولا قدرته على تلكَ المصانعَةِ، لقُتِلَ على الزندقةِ كما قُتِلَ غيره مِن أعلامِهَا[2].

2- بَشَّارُ بنُ بُرد:

وقَـدْ حَـملَه علَى الزندقةِ شُعوبيتُه، وَحِقدُهُ علَى العرَبِ، وبَصرُهُ بأديانِ الفُرسِ بَـصرًا دقيقًا حتَّى قالَ عنه حَـمادُ عَجرد بـأَنَّـهُ **"أعلمُ بالزندقَـةِ مِنْ مَانِـي"**[3]، وكان مُلـمًّا بعلومِ عصرِهِ كالفلسفةِ والكلامِ، مما زادَهُ تخبطًا وَحَيرةً، كما انحازَ إلَى غلاةِ الشيعةِ، وانتظم فِـي فرقة الكاملية، فكانَ يَـقولُ بالرجعَةِ، ويكفِّـرُ جميعَ الأمَّـةِ، ويقدسُ النارَ وينوه بعبادتِـها، وفضلِهَا على الأرض بمثلِ قولهِ:

الأَرْضُ مُظْلِمَـةٌ وَالـنَّارُ مُـشْـرِقَـةٌ وَالـنَّارُ مَعْـبُودَةٌ مُـذْ كَانَتِ الـنَّارُ

كَما يُـفضِّلُ إبليسَ على آدمَ عليهِ السلام؛ لأنَّ الأولَ خُلِـقَ مِن نَارٍ، وخُلقَ الثاني من طينٍ، ويُوافِقُ إبليسَ فِـي عدم سجودهِ لآدمَ:

إِبْـلِيسُ خَيْـرٌ مِـنْ أَبِيكُمْ آدَمٍ فَـتَنَبَّـهُوا يَـا مَعْشَـرَ الفُـجَّارِ
إِبْـلِيسُ مِـنْ نَـارٍ وَآدَمُ طِينَـةٌ وَالأَرْضُ لَا تَسمُو سُمُـوَّ الـنَّارِ

وفِـي شِعرِهِ استخفافٌ بالدينِ وفرائضهِ، فكانَ يُبيحُ لنفسهِ تَركَ صلاةِ الجماعةِ، زَاعمًا أنه لا يُبصِرُ، ولا يُحسِنُ أداءَها معَ المصلينَ، فيقولُ:

---

(1) انظر الأغاني 13/ 287.

(2) انظر د. حسين عطوان: الزندقة والشعوبية، ص 36.

(3) الأغاني 14/ 328.

وَإِنَّـنِي فِـي الصَّلَاةِ أَحْضُـرُهَـا ضُحْكَـةُ أَهْـلِ الصَّلاةِ إِنْ شَهِـدُوا
أَقْـعُـدُ فِـي سَجْـدَةٍ إِذَا رَكَـعُوا وَأَرْفَـعُ الـرَّأْسَ إِنْ هُـمُ سَجَـدُوا
أَسْجُـدُ وَالْـقَـوْمُ رَاكِـعُونَ مَـعًا وَأُسْـرِعُ الـوَثْـبَ إِنْ هُـمُ قَـعَـدُوا
وَلَـسْتُ أَدْرِي إِذَا إِمَـامُـهُـمُ سَلَّـمَ كَـمْ كَانَ ذَلِكَ العَـدَدُ

وَمِمَّـا يؤكدُ علاقتَه بالزندقةِ حُـزنُه لمن قُتِلَ منهم، ورثاؤه لَهم، فقد تألَّـمَ حينَما صَلَبَ المهديُّ صديقَه صالحَ بنَ عبدِ القدوسِ لزندقتهِ، فقالَ يَرثيهِ:

لَـقَدْ عِشْتَ مَبسُوطَ الـيَدَيْـنِ مُـبَـرِّزًا وَعُوفِـيتَ عِنْـدَ الموْتِ مِنْ ضَغْطَـةِ القَـبْـرِ
وَأَفْـلَتَّ مِـنْ ضِيقِ التُّـرابِ وَغَـمِّهِ وَلَـمْ تَـفْقِـدِ الدنيَا فَـهَلْ لَكَ مِنْ شُكْـرِ
فَـمَا تَشْتَـفِـي عَـيْنَايَ مِنْ دَائِمِ البُـكَا عَلَيكَ وَلَـوْ أَنِّـي بَـكَـيْتُ إِلَى الْـحَشْـرِ
فَطُوبَى لِـمَنْ يَبْـكِي أَخَاهُ مُـجَاهِرًا وَلَـكِنَّنِي أَبْكِي لِفَـقْدِكَ فِـي سِـرِّي[1]

يضافُ إلى ذلكَ مجونُـه وخلاعتُه، وغَزلُه الفاحشُ الذِي كانَ يُجاهر بهِ، حتى نهاه المهديُّ مخافةَ إفسادِ الفتيانِ والفتياتِ، حيثُ كانَ يدعو إلى الهجومِ على الملذات والنهَلِ منهَا، دونَما اكتراثٍ بدينٍ أو بَـشَـرٍ، فالحياةُ فرصةٌ، ينبغي أن تُغتنَمَ، يقول بشارٌ:

لَا خَـيْـرَ فِـي الْعَيشِ إِنْ كُـنَّا كَـذَا أَبَـدًا لَا نَلْـتَـقِي وَسَبِيلُ الْـمُلْتَـقَى نَـهَـجُ
قَـالُوا حَـرَامٌ تَـلَاقِـينَا فَـقُلْتُ لَـهُمْ مَـا فِـي التَّلَاقِي وَلَا فِـي قُـبْـلَـةٍ حَـرَجُ
مَـنْ رَاقَبَ النَّاسَ لَـمْ يَظْـفَـرْ بِحَاجَـتِهِ وَفَازَ بِالطَّـيِّباتِ الفَـاتِـكُ اللَّهِـجُ

وإذَا كانَ مُطيعُ بنُ إياس قد نجَا من القتلِ لاستظرافِ المهديِّ لَه، واعترافهِ بتأييدِهِ، فإنَّ بشارًا نالَ وبالَ زندقتهِ وشعوبيتهِ على يَـدَي المهدِيّ، فقدْ شَهِدَ أمامه شهودٌ عدولٌ بأنه زِنديقٌ، فأمرَ بضربهِ حتى التلفِ، فضُربَ سبعينَ سوطًا ماتَ مِنهَا[1].

(1) طوبى: الطُّوبَى: غبطة وسعادة، وخيرٌ دائم وهي من **الطِّيب**.

3- حَـمَّادُ عَجرَد:

هوَ حَـمّادُ بنُ يحيى بن عُمر بن كُليب، ويكنى أبا عُمر، مولَى بنِي عامر بن صَعصعةَ، وقِيلَ: إنَّ حَـمادًا لُقِّبَ بعجْرَد لأنَّ أعرابيًا مَـرَّ به فِـي يوم شديد البردِ وهو عريان يلعبُ معَ الصبيانِ فقالَ لَه: تَعجْرَدْتَ يا غلامُ؛ فسُمِّيَ عَجردًا قال أبو خليفة: المتعجْرِد: المتعرِّي؛ والعجْرَدُ أيضًا: الذهب.

وقالَ ابنُ المعتزِّ: "كانَ بالكوفَةِ ثَلاثَـةُ نفرٍ يقالُ لهم الحـمَّادونَ: حَـماد عجْرد، وحَـمّاد الراوية، وحَـماد بن الـزِّبْرِقَانِ، يتنادمونَ على الشرابِ، ويتناشدونَ الأشعارَ .. وكانوا كأنَّهم نفسٌ واحدةٌ، يُـرْمَونَ بالزندقةِ جَـميعًا، وأشهرُهم بها حَماد عجْرد"[2]. وَرُوِيَ عن **أبي نواس** قالَ: كنتُ أتوهَّمُ أنَّ حمادَ عجرد إنما رُمِيَ بالزندقةِ لمجونهِ فِـي شِعرهِ، حتى حُبِسْتُ فِـي حَبسِ الزنادقةِ، فإذا حَـمَّاد عَجرد إمامٌ مِنْ أئمتِهم، وإذَا لَه شِعرٌ مُزاوِجٌ بيتَينِ بيتَينِ يقرؤونَ به فِـي صَلاتِهم[3].

ومعَ أنهُ من أهمِّ الزنادقةِ كما يُفهَم من قولِ ابنِ المعتزِّ، فإنَّ مَا حُفِظَ من شعره لا يحدد نِحلتَه، ولا يشير صراحةً إلى زندقته، غير أن ذلكَ لا يخففُ التهمة عنه ولا يَنفِيها، فقد ضاعَ شِعرُه الناطقُ بزندقتهِ وإلحادهِ، ويُفهم من الأشعار التي هجاهُ بها رِفاقُه من الزنادقة وغيرهم أنه كان يدينُ بمذاهِبِ الثنويةِ كالمانويةِ والدَّيْصانيةِ، كقولِ بشارِ بن برد يهجوهُ وينسبُه إلى أنه ابن نِـهْـيَا:

يَـا بْـنَ نِـهْـيَا رَأْسٌ عَلَـيَّ ثَـقِـيلُ وَاحْتِـمَالُ الرؤُوسِ خَطْـبٌ جَـلِـيلُ
فَـادْعُ غَـيْـرِي إِلَـى عِـبَادَةِ الاثْـنَـيْـ ـنِ فَـإِنِّـي بِـوَاحِـدٍ مَـشْـغُـولُ
يَا بْـنَ نِـهْـيَا بَـرِئْـتُ مِنْـكَ إِلَى الـلَّـ ـهِ جِـهَارًا، وَذَاكَ مِـنِّي قَـلِـيلُ

(1) انظر الأغاني 3/ 246، د. حسين عطوان: الزندقة والشعوبية، ص 46.

(2) طبقات ابن المعتز، ص 69، والأغاني 14/ 322.

(3) الأغاني 14/ 324.

فأشاعَ حَـمّاد هذهِ الأبياتَ لبشارٍ فِـي الناس، وجعلَ فيها مكانَ "فإني بواحدٍ مشغول": "فإني عَنْ واحدٍ مشغولُ" ليصححَ عليهِ الزندقةَ والكفرَ بالله تعالَى، فما زالتِ الأبياتُ تدورُ فِـي أيدِي الناس حتى انتهتْ إلى بشارٍ، فاضطربَ منهَا وتغيرَ وجَزِعَ وقالَ: .. واللهِ مَا قلتُ إِلَّا فإنِّـي بوَاحدٍ مشغولُ فغيَّـرَها حتَّى شَهرنِـي فِـي الناسِ بِما يُهلكنِي، وكانَ لحمادٍ صاحبٌ يقالُ له حُـرَيثٌ على مذهبهِ، ولَه يقولُ بشارٌ حينَ مَاتَ حَـماد عجرد علَى سبيلِ التعزيةِ لَه:

بَـكَى حُـرَيْثٌ فَـوَقِّـرْهُ بِتَـعْـزِيَـةٍ مَاتَ ابْـنُ نِـهْـيَا وَقَـدْ كَانَـا شَرِيكَـيْنِ
تَـفَاوَضَا حِـينَ شَـابَـا فِـي نِسَائِـهِمَـا وَحَلَّـلَا كُـلَّ شَـيْءٍ بَـيْنَ رَجُلَـيْنِ

ويقول عنه مساورُ الورَّاق:

لَـوْ أَنَّ مَـانِـي وَدَيْـصَانًـا وَعُصْبَـتَـهُمْ جَـاءُوا إِلَـيْـكَ لَـمَا قُـلْـنَاكَ زِنْـدِيقُ
أَنْـتَ العِبَادَةُ وَالتَّوحِيدُ مُـذْ خُلِـقَا وَذَا التَّـزَنْـدُقُ نَـيْـرَنْـجٌ[1] مَـخَارِيقُ

وقد اتهم شعراء آخرون بالزندقة غير هؤلاء، كوالبةَ بنِ الحباب، وأبي نواس، وصالح بن عبد القدوس، وأبي دُلامةَ، وَسَلْم الخَاسِر، وأَبِـي العتاهية..وسواهم.

ثَالِثًا – الْـمُجُـونُ:

جاء فِـي لسان العرب: **الـمَجْنُ:** هو خلط الجِـدِّ بالهزل، **والمجونُ:** أَلَّا يبالِـيَ الإنسانُ ما صنع. ابن سيده: الماجنُ من الرجالِ الذِي لا يبالِـي بما قالَ ولا مَا قِيلَ لهُ، كأنه من غلظِ الوجْهِ والصلابةِ (فالمجون فِـي الأصل يعني الغِلَظَ والصلابةَ).

ويُـفهَمُ من المعنى اللغويِّ أن المجونَ هو المجاهرةُ بالإثم دونما اكتراثٍ بدينٍ أو خُلقٍ أو أعرافٍ، وذلكَ ما يلاحظ على مُـجَّانِ العصر العباسي، ولا سِيَّا الشعراءُ منهُم، فقدِ استعلنُوا بالمعاصِي، وجاهرُوا

(1) النيرَنْجُ: مَسٌّ كالسِّحْـرِ.

بالآثام؛ فسُمُّوا مُـجانًا، ولم يُسَمُّوا عُصاةً، فَليسَ كلُّ مَن استحلَّ محرمًا يجاهِـرُ بِـهِ، ومن ثَـمَّ فأساسُ المجون: المجاهرَةُ بالإثْمِ، والتبجحُ بِهِ.

أَمَّا ارتباطُ المجُونِ بالشعوبيةِ والزندقةِ فَجَلِيٌّ واضِحٌ، حتى ليمكن القولُ بأنَّ الشعوبية والزندقة كانت أولَ عواملِ ظهور تيار المجونِ فِـي الحياة العربية، وفِـي كلام **د. عز الدين إسماعيل** ما يؤكدُ هذه العلاقة حيثُ يقولُ: "ولما كانَ السلوكُ الماجنُ خُروجًا على قواعدِ الدينِ ومروقًا من العقيدةِ، فسرعَانَ مَا اصطبغَ المجونُ بصبغة الزندقةِ، وصارَ مِنَ المألوف ارتباطُ وصفِ الماجنِ بِوَصفِ الزنديقِ"، كما أنَّ الواقعَ الشعريَّ يؤكد ذلكَ الارتباطَ الوثيق؛ فلستَ تجد شَاعرًا شُعوبيًا ولا زنديقًا إلا وهوَ يتَماجَنُ فِـي شعره، وَيُباهِي بآثامِهِ، واقترافِهِ المحرمَاتِ، وليسَ بعدَ الزندقَـةِ ذَنبٌ.

علَى أنَّ عواملَ أخرَى غيرَ الزندقةِ والشعوبيةِ قد أَسهَمَتْ فِـي بُـروزِ ظاهرةِ المجونِ إِلَى الحياةِ العربيةِ، وفِـي مُقدمتِهَا جَـوُّ الحريةِ الذي أتاحَه خلفاءُ بنِي العباس، بل عُرِفَ بعضُ الخلفاء العباسيينَ بالمجونِ والخلاعةِ، وقد ظلتْ الخلافةُ العباسيةُ أولَ تأسيسِها تَتخِذُ طَابَـعَ الجِـدِّ والحزمِ خشيةَ خصومِها المتربصينَ بها، وقد عُرفَ ذلكَ عن خلفائِها الأوائل (السفاح – المنصور – المهدي – الهادي)، فلما جاءَ **الرشيدُ** خَلطَ عملًا صالحًا وآخر سيئًا، فجمعَ بين النقائضِ، يشربُ النبيذَ على المذهبِ العِراقيِّ[1]، وَيَعقِدُ مجالسَ للغناءِ والطرب، ويحج عامًا ويغزُو آخرَ، لكنَّ الخلافةَ ظلتْ فِـي عهدِهِ محتفظةً بشيءٍ من التوازن، فلا تُـفَرِّطُ فِـي الجِدِّ والوقارِ، ولا تُسرفُ فِـي اللهوِ والمجونِ.

ثم جاءَ الخليفةُ **الأمينُ** بعد ذلكَ، وكانَ مَاجنًا خليعًا، فازدادَ المجَّان فِـي عهدِه تَبجحًا وتوقحًا، وَقَـرَّبَ إليهِ الغِلمانَ والخِصيَانَ، وانقطعَ إليهم دُونَ النسَاءِ، حتى اتُّهِمَ بهم، وفِـي ذلكَ يقولُ أبو نُواسٍ:

احْـمَـدُوا اللهَ كَـثِـيرًا يَـا جَـمِـيعَ الْـمُسلِـمِينَا

(1) كان ذلك الاجتهاد العراقي سببًا كذلك فِـي نشأةِ تيارِ المجون؛ حيث أدى اجتهاد بعض فقهاء العراق إلى تحليل بعض الأنبذة كنبيذ التمر والزبيب المطبوخ أدنى طبخ، ونبيذ العسل والبُـرِّ والتين، فشرب الخلفاء هذه الأنبذة وشربها الناس. انظر د. شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص 65.

ثُـمَّ قُـولُـوا لَا تَـمَـلُّوا رَبَّـنَا أَبْـقِ الأَمِـينَا
صَبَّـرَ الخِـصْـيَانَ حَـتَّى جَـعَـلَ التَّـصْبِـيرَ دِيـنَا
فَـاقْـتَـدَى الـنَّاسُ جَـمِيعًا بِـأَمِـيـرِ الـمُؤْمِـنِيـنَا

ثم شاءَ الله لخلفاءِ بني العباس أن يَعودُوا إلى الجِـدِّ مَرة أخرَى، بعدَ أن تَخلصَ **المأمونُ** مِن أخيهِ الأمينِ وصارتِ الخلافة إليه، فكان المأمونُ – بخلافِ الأمينِ – جادًّا، وَقَـرَّبَ إليه العلماءَ والفقهاءَ، ولَا يَعني ذلك أن المجونَ قد تَوقفَ نِهائيًّا بموتِ الأمين؛ فكل ما هنَاكَ أن الله قيضَ للدولةِ ثلاثةَ خُلفَاء عَلَى التوالي، هم: **المأمون والمعتصم والواثق**، أخذوا أنفسَهم بشَيءٍ غيرِ يَسيرٍ مِنَ الْـجِدّ، فلم يَجِدِ المجّانُ الطريقَ إلى مجالسِهم ذَلولًا، وإن ظل الغناءُ والمغنونَ، والفَكِهونَ المضحكونَ عناصرَ مشتركةً فِـي هذهِ المجالسِ، وما كاد الأمر يَنتهِي إلى **المتوكل** حتى امتلأَ مجلسُه بالمضحكينَ الهازلينَ، وبوسائلِ اللعبِ والمرحِ، فضلًا عما اجتمعَ لديهِ من شعراء منهم الجادُّ كالبُحتري، وأكثرُهم مُهرِّجٌ مَاجِنٌ.

وهكذَا تَقلبتْ أحوالُ الخلفاءِ العباسيينَ بَينَ جِـدٍّ وهزلٍ، فكان بعضُهم سببًا من أسبابِ المجونِ والهزلِ فِـي الحياةِ العربيةِ.

كما انتشرتْ فِـي العصرِ العباسيِّ الخماراتُ والحاناتُ، ودُورُ اللهوِ والغِناءِ، فشكلَتْ بِدَورِهَا عاملًا من عواملِ الخلاعةِ والمجونِ والعبثِ، وأسهمتْ أَديرَةُ النصارَى بسهمٍ وافرٍ فِـي تَنميةِ المجونِ فِـي المجتمَعِ العربـيِّ، حتى كانت أديرَةٌ بعينِهَا مباءةً للهوِ والقَصْفِ وَمَقصدًا للخلعاءِ والمجَّانِ مِنَ الشعراءِ وغيرِهم، وَمَنْ يطالعْ شِعْرَ المجونِ يجدْ أسماءَ كثيرٍ مِنَ تِلكَ الأديرةِ تتردُ فِـي هذَا الشعرِ، كما يجد تصويرًا لما يحدثُ فِـي تلك الأديرة من عَبَثٍ.

وارتبط بالعامل السابق عاملٌ آخرُ، حيث أدى انتشارُ دورُ اللهوِ والغناءِ إلَى كثرةِ الغِناءِ والمغَـنِّينَ، وكان للموَالي وَالإماءِ دورٌ واضحٌ فِـي ذلكَ، فمن المعلوم أن الجوارِيَ والإماءَ قد انتشرْنَ فِـي هذا العصر انتشارًا واسعًا، وعُرِفَ بعضهنَّ بإجادة الغناءِ، فكان ذلكَ سببًا فِـي ارتفاع أثمانهنَّ، وكانَتِ

الأَمَـةُ التي تحسنُ الغناء تُسمَّى قَينَـةً[1]، مما حملَ المقَينينَ علَى تَعليمهنَّ فنونَ الغناء والموسيقَى، وقد عُرِفَ **إبراهيمُ الموصليُّ** وابنه **إسحاقُ** – وهما من أشهر المغنينَ فِـي العصر العباسيِّ – بأنهما كانَا يعلمانِ الإماءَ الغناءَ ويخرِّجانِهم فِيهِ.. وَلَا ريبَ أن كثرةَ المغنينَ والمغنياتِ أدى إلى حظوةِ بعضهنَّ لدَى الخلفاءِ، كما أدَّى إلى إقبال الناسِ على دورِ اللهو والغناء جَريًا وراءَ الملاذِّ، ومنها تلكَ المغنياتُ، وقد صورَ كثير من شعراءِ المجونِ جمالَ أولئكَ المغنياتِ وَفِتنتَهُنَّ.

فإذا أضفْنَا إلى كل ما سبقَ **الثراءَ** الناتجَ عن كثرة الأموالِ المتدفقةِ إلى بيتِ المال من خراجِ البلدانِ والكُوَرِ المفتوحَةِ وغِلالِها، عَلمْنَا سِرَّ انتشارِ المجونِ فِـي الطبقة العُليا من المجتمَعِ خَاصةً، حيثُ كانَ الخلفاءُ هم المتحكمينَ فِـي تلكَ الأموالِ وتوزيعِهَا، فأغدقُوا فِـي عَطايا الشعراءِ والمغنينَ والمضحِكينَ، مما أنتج طبقةً من المترفين فِـي المجتمع العباسيِّ، وَلا ريبَ أن المجونَ قَرينُ الترفِ المادي وَصِنْوُهُ فِـي كثيرٍ مِنَ الأحيانِ.

ومثلَما وَجَدَتِ الشعوبيةُ جُذورًا لها قَبْلَ العصرِ العباسيِّ، فإنَّ المجونَ كَذلكَ كَانت لَه جُذورٌ زمنَ بني أميةَ، بَـلْ يُمكن الرجوعُ به إلى زمنِ الجاهليةِ، بحيث تكون فترة النبوةِ والراشدينَ استثْناءً فِـي وجود ظاهرةِ المجونِ أو ذُيُـوعِهَا، فالرواة يَتهمونَ الوليدَ بنَ يَزيدَ[2] – وهوَ أحدُ خلفاءِ بَني أميةَ – بالخلاعةِ والمجونِ، ويَـعدون أبا نواسٍ وغيرَه تابعِينَ له فِـي شعرِ الخمريَّـاتِ، بل يرونَ أنهم سَطَوْا على شعره، وسرقُوا معانيه وألفاظه، أو قُل إنَّهم استباحوهَا واغتصبوهَا اغتصَابًا، لَـمْ يروا فِـي ذلكَ حرجًا[3]، ومن ذلك قولُه فِـي الخمرِ:

---

(1) ربما كانَ ذلكَ عُرفًا خاصًّا، أو من باب التغليبِ، وإلَّا فالقينَةُ هيَ الأمَـةُ مغنيةً كانت أو غيرَ مغنيةٍ، ففِـي لسان العرب: القينةُ: المغنية، لكن فيه كذلك قال أبو عمرو: كل عبدٍ عندَ العربِ قَينٌ، والأمةُ قينةٌ، قال: وبعض الناسِ يظن القينةَ المغنيةَ خاصةً، وليسَ هو كذلكَ.. **القينة:** الأمَـةُ غَنَّـتْ أوْ لَـمْ تُغَـنِّ والماشطةُ، وكثيرًا ما يُطلَـقُ علَى المغنية فِـي الإمَـاءِ، وجَـمْعُها قَينَاتٌ.

(2) ثامن خلفاء بني أمية، تولى الخلافة سنةً واحدةً (125هـ – 126هـ).

(3) انظر د. طه حسين: حديث الأربعاء 2/ 139.

اصْدَعْ نَجِيَّ الْـهُمومِ بِـالطَّـرَبِ وَانْـعَمْ عَلَـى الـدَّهْـرِ بِابْـنَـةِ العِـنَبِ
وَاسْتَـقْبِلِ العَـيْشَ فِـي غَضَارَتِـهِ وَلَا تَـقْفُ مِـنْـهُ آثَـارَ مُـعْـتَـقِبِ
مِـنْ قَـهْـوَةٍ زَانَـهَا تَـقَـادُمُـهَا فَـهْيَ عَجُوزٌ تَـعْـلُو عَلَـى الْـحِقَبِ
أَشْهَى إِلَى الشَّـرْبِ يَـوْمَ جَلْـوَتِـهَا مِـنَ الفَـتَاةِ الكَـرِيمَـةِ النَّـسَبِ
فَـقَـدْ تَـجَـلَّتْ، وَرَقَّ جَـوْهَـرُهَا حَـتَّى تَـبَـدَّتْ فِـي مَـنْظَـرٍ عَـجَبِ

أَمَّـا التجلياتُ الشعريةُ لهذَا المجونِ فِـي العصرِ العباسيِّ، فهيَ كثيرةٌ جدًّا حتَّى لتندّ عنِ الحصْرِ، ولعلَّ أهمَّ تلك التجلياتِ شعرُ الخمرِ المنتشِرِ عندَ كثيرٍ مِنْ شعراءِ العصرِ العباسيِّ، وَلَا سِيَّما أَبُو نُواسٍ الذي عُرِفَ بفتنتِهِ بالخمرِ على نحوٍ خاصٍّ، كما تجلى كذلك فِـي السخريةِ من العباداتِ، والاستخفَافِ بها، والمجاهرَةِ بالمعاصِي فِـي الشعْرِ دُونما وَازعٍ مِنْ خُلُقٍ أو دِينٍ، وَحَسبُنَا أنْ نمثلَ لذلكَ بشاعريْنِ مِنْ شعراءِ العصرِ العباسيِّ عُرِفَا بالمجونِ، وهما: أبو نُواسٍ، والحسينُ بنُ الضحَّاكِ.

1- أبو نواس:

تَـجتمِعُ فِـي شعرِ أبي نواسٍ كثير من مظاهرِ المجونِ والخلاعةِ، والعدَاءِ للعَربِ، والتزندُقِ كذلك حتى ليمكن عدُّهُ نَموذجًا لتلكَ الظواهرِ الثلاثِ مجتمعَاتٍ (الشعوبيةِ والزندقةِ والمجونِ)، فكَثيرًا ما تَـرَاهُ يَلمِزُ حياةَ العربِ، ويهاجِمُ أنماطَ عَيشِهم، وفِـي ثورتهِ علَى الأطلالِ نَموذجٌ واضحٌ لهذَا، وإنْ كانَ هناكَ مَن يَرى أنَّ ثورتَه على الأطلالِ ليستْ أمارةً علَى شُعوبيتِهِ، فقدْ عاشَ فِـي ظِلِّ **الأمينِ** حياةَ الترَفِ والنعيمِ، وفِـي ذَلِكَ مَا يَنأَى بهِ عَنِ الحقدِ علَى العَربِ، كما أنه كانَ يُهاجِمُ الأعرَابَ لا العربَ، مُستنِدًا إلَى قولهِ:

وَلَا تَـأْخُـذْ عَـنِ الأَعْـرَابِ لَـهْوًا وَلَا عَـيْشًا فَـعَيشُهُـمُ جَـدِيبُ

وَإِنَّـما كانتْ ثَورتُه علَى الأطلالِ ثَـورةً علَى زيفِ المشاعِـرِ عندَ شعراءَ يَعيشُونَ فِـي الحواضرِ الإسلاميةِ وَلَا يَستجيبونَ لِـمَا طَـرَأَ عليهَا مِنْ تَغييرٍ وجمالٍ ابتعدَ بِها عنْ حياةِ الأطلالِ الداثِرَةِ، وبقايَا الديارِ، لكنهُم مَا زالوا متعلقينَ بتلكَ الصحَارِي القِفَارِ[1].

وَمَهما يَـكنْ مِنْ أمرٍ فَكثيرًا ما اختلَطَتْ ثَورَةُ أَبِـي نُواس علَى الأطلَالِ بثورتِهِ علَى الحياةِ العربيةِ، ومِنْ ذلكَ قَولُه فِـي القصيدةِ التي احتوتِ البيتَ السابقَ:

دَعِ الأَطْـلَالَ تَـسْفِـيهَا الـجَنُوبُ وَتُـبْـلِـي عَهْـدَ جِـدَّتِـهَا الـخُطُوبُ
وَخَـلِّ لِـرَاكِبِ الوَجْـنَاءِ أَرْضًا تَـخُبُّ بِـهَا النَّجِيبَـةُ والنَّجِـيبُ
بِـلَادٌ نَـبْـتُـهَا عُـشَـرٌ وَطَـلْحٌ وَأَكْـثَـرُ صَيْـدِهَا ضَـبْعٌ وَذِيـبُ
وَلَا تَـأْخُـذْ عَـنِ الأَعْـرَابِ لَـهوًا وَلَا عَـيْـشًا فَـعَيْشُهُـمُ جَـدِيبُ
دَعِ الأَلْـبَانَ يَشْـرَبُـهَا رِجَـالٌ رَقِـيقُ العَيشِ بَينَهمُ غَـرِيبُ
إِذَا رَابَ[2] الـحَلِيبُ فَـبُـلْ عَلَـيْـهِ وَلَا تُـحْـرَجْ فَـمَا فِـي ذَاكَ حُوبُ
فَـأَطْـيَبُ مِـنْـهُ صَافِـيَـةٌ شَمُولٌ يَـطُوفُ بِكَـأْسِهَا سَـاقٍ أَرِيبُ
يَـكَادُ مِـنَ الـدَّلَالِ إِذَا تَـثَـنَّى عَـلَـيْكَ مِـنْ تَساقُـطِـهِ يَـذُوبُ
فَـهَـذَا العَـيْشُ لَا خِـيَـمُ البَـوَادِي وَهَـذَا العَيشُ لَا اللَّـبَـنُ الْـحَلِيبُ

وَقَـولـه:

(1) انظر **د. العربي حسن درويش**: الشعراءُ المحدثون فِـي العصر العباسي، الهيئة المصرية العامة للكتاب 1989م، ص 88، وَإِلَـى مِثلِ هذَا الرأْي ذهبَ أستاذُنا الدكتور **محمد أبو الأنوار** حين يقولُ: "ونحنُ لا نتفقُ معَ أستاذِنَا الدكتور طَـه حسين فِـي أن مذهبَ أبي نُواس كانَ مَذهبًا شُعوبيًّا، بل كان مذهبًا فنيًّا أساسُه حبُّ الحضارةِ التي يَحياهَا، وحب الصدقِ الفنيِّ والصدقِ النفسيِّ، وأستاذُنا الدكتورُ طه حُسين قد أطالَ القولَ فيما يتصل بصدقِ أَبِـي نُواس النفسيِّ والفنيِّ". الشعر العباسي تطوره وقيمه الفنية، ص 186.

(2) رابَ: خَـثُـرَ، أو تجبَّنَ.

عَـاجَ الـشَّقِـيُّ عَـلَى رَسْـمٍ يُسائِـلُـهُ وَعُـجْـتُ أَسْـأَلُ عَـنْ خَـمَّارَةِ البَـلَـدِ
يَبْـكِي عَلَـى طَـلَلِ الْـمَاضِينَ مِنَ أَسَـدٍ لَا دَرَّ دَرُّكَ قُـلْ لِـي مَـنْ بَـنُو أَسَدِ
وَمَـنْ تَـمِيمٌ وَمَـنْ قَـيْسٌ وَلَـفُّـهُـمَا لَيسَ الأَعَـارِيبُ عِندَ اللهِ مِـنْ أَحَـدِ
لَا جَـفَّ دَمْعُ الذِي يَـبْـكِي عَلَى حَجَرٍ وَلَا صَفَا قَلْبُ مَنْ يَصْبُو إِلَـى وَتَـدِ
كَمْ بَينَ نَاعِتِ خَـمْـرٍ فِـي دَسَاكِـرِهَا[1] وَبَـيْـنَ بَـاكٍ عَلَـى نُـؤْيٍ وَمُـنتَـضَـدِ
دَعْ ذَا عَدِمْـتُكَ وَاشْرَبْـهَا مُعَـتَّـقَةً صَفْـرَاءَ تَـفْرُقُ بَـيْنَ الرُّوحِ وَالْـجَسَدِ

وَلَئِنْ أثارتِ الأبياتُ السالفاتُ شبهةَ الشعوبيةِ حولَ أبي نواسٍ – صَحَّتْ تلكَ الشبهةُ أم لَـمْ تصحَّ – فإن مجونَه ليسَ مَوضعَ خِلافٍ، ودليلُ ذلكَ شِعرُهُ الذِي يَـجهَرُ فيهِ بحبِّ الخمرِ وكلِّ مَا اتصلَ بِـهَا، ولقدْ أكثرَ أبو نُواسٍ مِنْ شعرِ الخمرِ حَـتى عُـدَّ شَاعِـرَ الخمرياتِ فِـي العصرِ العباسيِّ، ومن ذلكَ قَولُه:

أَلَا فَاسْقِنِـي خَـمْـرًا وَقُـلْ لِـي: هِيَ الْـخَـمْـرُ
وَلَا تَسْقِنِـي سِـرًّا إِذَا أَمْـكَنَ الْـجَـهْـرُ
وَبُـحْ بِاسْمِ مَـنْ تَـهْوَى وَدَعْـنِي مِنَ الْـكُـنَى
فَـلَا خَـيْـرَ فِـي اللَّـذَّاتِ مِنْ دُونِـهَا سِتْـرُ
وَلَا خَـيْـرَ فِـي فَـتْـكٍ بِـغَـيْـرِ مَـجَانَـةٍ
وَلَا فِـي مُـجُونٍ لَـيْسَ يَـتْـبعُـهُ كُـفْـرُ

وقوله:

غَـدَوْتُ إِلَـى اللَّـذَّاتِ مُـنْهَتِكَ السِّـتْـرِ
وَأَفْـضَتْ بَنَـاتُ السِّـرِّ مِنِّـي إِلَـى الْـجَـهْرِ
وَهَانَ عَـلَـيَّ النَّـاسُ، فِيمَا أُرِيـدُهُ

(1) الدَّسْكَـرَةُ: بناء كالقصر حوله بيوت للأعاجم يكون فيها الشرابُ والملاهي.

بِـمَا جِـئْتُ، فَاسْتَغْـنَيْـتُ عَنْ طَـلَبِ العُـذْرِ

رَأَيْتُ اللَّـيَالِـيَ مُـرْصِدَاتٍ لِـمُـدَّتِـي

فَـبَـادَرْتُ لَـذَّاتِـي مُـبَـادرَةَ الـدَّهْـرِ

وَلا ريبَ أنَّ العصرَ الذي عاشَ فيهِ أبو نواس قد جَـرَّأَهُ على ذلكَ المجونِ، وإذا كانَ المهدِيُّ وابنه الهادي قد عُرِفَا بمطاردتِهما للزنادقة والمجانِ، فإنَّ قبضةَ الرشيدِ بعدَهما قَـدْ تَراخَتْ بعضَ الشيءِ فِـي الأخذِ على يد المنحرفين، وفِـي كتاب الموشح للمرزباني ما يؤكد ذلك؛ فقد رَوَى المرزبانِـيُّ عن الجَمَّازِ، قالَ: "كنتُ عندَ أبي نواسٍ ، قالَ: اسمَعْ أبياتًا حضرَتْ، قلتُ هاتِ فأنشَدَنِـي:

وَمُـلِحَّـةٍ بِاللَّـوْمِ تَـحْسَبُ أَنَّـنِي بِالْـجَـهْلِ أُوثِـرُ صُحْـبَـةَ الشُّـطَّارِ

بَـكَـرَتْ عَـلَـيَّ تَـلُومُـنِي فَأَجَـبْـتُـهَا إِنِّـي لَأَعْـرِفُ مَـذْهَبَ الأَبْـرَارِ

فَـدَعِي الْـمَلَامَ فَـقَدْ أَطَعْتُ غِوَايَتِي وَصَرَفْتُ مَعْرِفَـتِي إِلَـى الْإِنْـكَارِ

وَرَأَيْتُ إِتْـيَانِـي اللَّـذَاذَةَ وَالْـهَوَى وَتَعَجُّلًا مِـنْ طِـيبِ هَـذِي الـدَّارِ

أَحْـرَى وَأَحْـزَمَ مِـنْ تَـنَـظُّـرِ آجِـلٍ عِلْمِي بِـهِ رَجْـمٌ مِـنَ الأَخْـبَارِ

مَـا جَـاءَنَـا أَحَـدٌ يُـخَبِّـرُ أَنَّـهُ فِـي جَـنَّـةٍ مَـنْ مَـاتَ أَوْ فِـي نَـارِ

فَلمّا بلغَ إلَى هذَا البيتِ قلتُ لَه: يا هذَا إن لكَ أعداءً، وهمْ يَنتظرونَ مثلَ هذهِ السقطاتِ: فاتقِ الله فِـي نفسِكَ، ودعِ الإفراطَ فِـي المجون، واكْـتُمْهَا، قالَ: لَا واللهِ لَا أَكتمُها خَوفًا، وَإِن قُضِيَ شَيْءٌ كَانَ. فَـنُمِيَ الـخَـبَـرُ إلى الفضلِ بنِ الربيعِ، ثُـمَّ إِلَـى الرشيدِ، فَما كانَ بعدَ هَذا إلَّا أسبوعٌ حَتَّى حُبِسَ"[1].

وأبعدُ مِنْ ذَلكَ فِـي الجرأةِ أنْ يَتجرّأَ أبو نُواس عَلى الرشيدِ ذاتِهِ فَـيُلمِحَ إلى فِسقِهِ وَجَـوْرِه، فقد رَوى المرزبانيُّ كذلكَ: "جَلسَ الرشيد مجلسًا فأفاضَ مَنْ حضرَهُ فِـي ذِكْرِ المطبوعينَ مِنَ الشعراءِ

(1) المرزباني: الموشح (مآخذ العلماء على الشعراء فِـي عدة أنواع من صناعة الشعر)، تحقيق على محمد البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ص 348، 349.

المحدثينَ إلى أنِ اتصَلَ الذِّكْـرُ بِأَبي نواسٍ، فَغمزَ عليهِ سُليمانُ بنُ أَبِي جعفرٍ، فقالَ يَا أميرَ المؤمنينَ: كَافِـرٌ باللهِ،لَا يَـرْعَوِي مِن سَكْـرَةٍ، وَلَا يَأنَـفُ مِن فاحشَةٍ! وقد كَانَ نُمِيَ إلَـى الرشيدِ مِن خبرِهِ شيءٌ، فقالَ: يا عمّ، هلْ تأثُـرُ عنه من ذلكَ شيئًا؟ قال: قولُه يا أميرَ المؤمنينَ:

يَـا نَـاظِـرًا فِـي الـدِّينِ مَـا الأَمْـرُ! لَا قَـدَرٌ صَحَّ وَلَا جَـبْـرُ!
مَا صَحَّ عِـنْدِي مِنْ جَـمِيعِ الـذِي تَـذْكُـرُ إِلَّا الْـمَوْتُ وَالْـقَـبْـرُ

ثم أنشدَه قولَـهُ:

بَـاحَ لِسَانِـي بِـمُضْمَـرِ السِّـرِّ وَذَاكَ أَنِّـي أَقُـولُ بِـالـدَّهْـرِ
وَلَـيْسَ بَـعْـدَ الْـمَـمَاتِ مُـرْتَـجَعٌ وَإِنَّما الْـمَوْتُ بَـيْضَةُ العُـقْـرِ

فاستشاطَ الرشيدُ غضبًا وطارَ شِقَقًا، وقال علـيَّ بابْنِ الفاعلَةِ، فقالَ رجل من جُلساءِ الرشيدِ: إنْ أَذِنَ لِـي أميرُ المؤمنينَ أنشدتُه مِنْ قولِ هذَا الفاسِقِ مَا هوَ أشنعُ وأفظعُ مما أنشدَهُ أَبُـو أيوبَ! قالَ: هَاتِ، قال: قولهُ فِـي غُـلامٍ نصرانيٍّ:

تَـمُـرُّ فَـأَسْتَحْيِيكَ أَنْ أَتَـكَلَّـمَا وَيُـثنِيكَ زَهْـوُ الْـحُسْنِ عَنْ أَنْ تُسَلِّـمَا

حتى انتهى إلى قوله:

أَلَيسَ عَـظِيمًا عَـنْـدَ كُـلِّ موُحِّـدٍ غَـزَالٌ مَسِيحِـيٌّ يُـعَـذَّبُ مُـسْلِـمًا
فَـلَـوْلَا دُخُولُ الـنَّارِ بَـعْـدَ بَـصِيرَةٍ عَـبَدْتُ مَكَانَ....[1] عِيسَى بْـنَ مَـرْيَـمَا

وأنشدَه أبياتًا له فِـي نصراني آخرَ أولُـهَا:

وَمُـلِحَّـةٍ بِالْـعَـذْلِ ذَاتِ نَصِيحَـةٍ تَـرْجُـو إِنَـابَـةَ ذِي مُـجُـونٍ سَـارِقِ
بَـكَرَتْ تُـخَـوِّفُـنِي الْـمَعَادَ، وَشِيمَتِـي غَـيْـرُ الْـمَعَادِ، وَمَـذْهَبِي وَخَـلَائِـقِي

(1) بياض فِـي الأصل وفوقه: عز وجل.

فَـأَجَـبْـتُـهَا كُـفِّـي مَـلامَكِ إِنَّـنِـي مُـخْـتَارُ دِيـنِ أَقِـسَّـةٍ وَجَـثَالِـقِ
وَاللهِ لَـوْلَا أَنَّـنِـي مُـتَخَـوِّفٌ أَنْ أُبْـتَـلَـى .....

ثم قَطَعَ الإنشادَ فقال الرشيدُ: بماذَا وَيلَكَ فقالَ:

بِـإِمَـامِ جَـوْرٍ فَـاسِـقِ

قال: فضاق المجلسُ بأهلِـهِ، وأنكرَ الرشيدُ نفسَه. ثم قالَ امْضِ فيهَا! فقالَ:

لَـتَبِعْـتُـهُمْ فِـي دِينِـهِمْ وَدَخَـلْـتُـهُ بِـبَصِيرَةٍ مِـنِّـي دُخُـولَ الْـوَامِـقِ
إِنِّـي لَأَعْـلَـمُ أَنَّ رَبِّـي لَـمْ يَـكُنْ لِـيَخُصَّهُمْ إِلَّا بِـدِينٍ صَادِقِ

فقالَ الرشيدُ للفضل: برئتُ مِنَ المنصُورِ إن لَـمْ يبتْ هذَا الكَلبُ فِـي المطبَـقِ؛ لتنكرنِّـي فِعلًا وقولًا، فوجَّهَ الفضلُ من ساعتهِ مَن أخذَ بأفوَاهِ السكَكِ، فَـوُجِدَ فأُودِعَ المطبَـقَ"[1].

وفِـي ديوانِ أبي نواسٍ كثيرٌ مِنْ هذا الكلامِ المجترِئِ علَى القيَمِ والتقاليدِ، وأصولِ الإسلامِ ومَبادئِهِ، مِنْ نَحوِ قَولِهِ:

فَـخُـذْهَا إِنْ أَرَدْتَ لَـذِيذَ عَـيْشٍ وَلَا تَـعْـدِلْ خَلِيلِـيَ بِالْـمُـدَامِ
وَإِنْ قَـالُوا "حَـرَامٌ" قُـلْ "حَـرَامٌ" وَلَـكِـنَّ اللَّـذَاذَةَ فِـي الْـحَـرَامِ

وقـولـه:

دَعِ المسَاجِـدَ لِلـعبَّـادِ تَسكنُـهَا وَطُـفْ بِنَا حَـوْلَ خَـمَّارٍ لِيَسقِينَا
مَا قَـالَ رَبُّـكَ وَيْـلٌ لِلأُلَـى سَكِـرُوا بَـلْ قَـالَ رَبُّـكَ وَيْـلٌ لِلمُـصَلِّينَا

ومما أُنْـكِـرَ عَليهِ قَولُـهُ:

(1) السابق، ص 347، 348.

يَـا أَحْـمَـدُ الْـمُـرْتَـجَى فِـي كُـلِّ نَـائِـبَـةٍ قُـمْ سَـيِّـدِي نَـعْـصِ جَـبَّـارِ السَّمَـوَاتِ

لأنَّ هذه أعظمُ جرأةٍ، وأقبحُ مجاهرةٍ، وأشدُّ تبغضٍ إلى العزيز الجبارِ عز وجلَّ أن يقول: " نَـعْصِ جَـبَّارِ السَّمَـوَاتِ "؛ فذَكرَ المعصيةَ مع ذكرِ الجبارِ – عزَّ اسمه – وأنه إياه يقصِدُ بالعصيانِ[1].

2– الحسينُ بنُ الضَّحَّاكِ:

أبو عَليّ الحسينُ بن الضحاكِ بنِ ياسر الباهلي بالولاءِ، البصْرِيّ، الخراسانيّ، المعروفُ **بالْـخَلِيعِ** أو **الخالِعِ**، والمشهورُ **بالأشقَرِ**، وُلِدَ بالبصْرَةِ سنةَ 162 هـ ، وقيلَ قبلَها.

وقَدْ عُمِّـرَ زَمنًا طويلًا، فاتصَلَ بغيرِ خليفةٍ عبَّاسيٍّ (كالأمينِ، والمعتصمِ، والواثقِ، والمتوكلِ، والمنتصِرِ)، ونادمَهم سِوَى المأمونِ، فقد كانت بينَهما جَفوةٌ، روَاهَا ابنُ خَلِّـكَان فِي (وَفياتُ الأعيَانِ)، فقالَ: "أبو عَليّ الحسينُ بن الضحاكِ بنِ ياسر الشاعرُ البصرِيُّ المعروفُ بالخلِيعِ، مولَى لِوَلَدِ سَلمانَ بنِ ربيعةَ الباهلِيّ الصحَابِيّ رضيَ الله عنه، وأصلُه مِنْ خُراسَانَ؛ وهو شاعِرٌ ماجنٌ مطبوعٌ حَسَنُ الافتنانِ فِـي ضُروبِ الشعْرِ وأنواعِهِ، واتصَلَ فِـي مجالسةِ الخلفَاءِ إِلَى مَا لَـمْ يتصلْ إليهِ إلا إسْحَاقُ بن إبرَاهيمَ النديم الموصِلي، فإنه قاربَه فِي ذَلِكَ أو سَاواهُ، وأَولُ مَنْ صَحِبَ مِنهم الأمينُ محمدُ بنُ هارُونَ الرشيدِ، وكانَ اتصالُه بهِ فِي سنةِ ثمان وتسعينَ ومِائةٍ، وَهِيَ السنةُ التي قُـتلَ فيهَا الأَمِينُ، وَلَـمْ يَـزَلْ مَعَ الخلفَاءِ بَعدَه إِلَى أيامِ المستعِينِ، مَا عَدَا المأمونَ، فإنه لَـمْ يدخل عليهِ، وَلَـمْ يَـختلِطْ بهِ، وذلكَ لأَنَّـهُ رَثَى الأَمينَ فَـقَالَ:

هَـلَّا بَـقِيتَ لِسَـدِّ فَـاقَـتِـنَـا أَبَـدًا وَكَانَ لِـغَيـرِكَ الـتَّـلَـفُ
وَقَـدْ كَانَ فِيكَ لِـمَنْ مَـضَى خَلَـفٌ فَالْـيَوْمَ أَعْـوَزَ بَـعْـدَكَ الْـخَـلَـفُ

(1) السابق: ص 339.

فَلـمّا وَرَدَ المأمونُ بغدَادَ أمرَ أن يُكتَبَ مَنْ يَصلُح لمنادمتِه مِن أهلِ الأدبِ، فَـأُثبِتَ له قَوْمٌ وَذُكِرَ فيهم الحسينُ بنُ الضحاكِ، فقالَ: أليسَ القائِلَ: وَكَانَ لِـغَيـرِكَ الـتَّـلَـفُ؟ والله لَا أرَى وجهَه عَلى الطَّريقِ؛ فَلم يَـحظَ فِـي أيامِ المأمونِ بِشَيءٍ".

وَقَـدْ شَهِدَ **الأصفهَانيُّ** كذلكَ للحُسينِ بتَميُّـزِ شِعرِهِ وبَراءتِـهِ مِنَ التكلفِ؛ فقالَ عنهُ: "شَاعِرٌ أديبٌ ظريفٌ مَطبوعٌ حسَنُ التصرُّفِ فِـي الشعرِ، حُلْو المذهَبِ، لشِعرِهِ قَـبُولٌ وَرَوْنقٌ صَافٍ، وَكَانَ **أَبو نُواسٍ** يَأخُـذُ مَعانيَـهُ فِـي الْـخمْرِ فـيُـغِيرُ عَليهَا، وَإِذَا شَاعَ لَه شِعرٌ نادرٌ فِـي هذَا المعنَى نسبَهُ الناسُ إلَى أبِـي نواسٍ، وَلَـهُ معَانٍ فِـي صِفَتِهَا أبدَعَ فِيهَا، وسَبقَ إِليهَا، فاستعَارَهَا أبُو نواسٍ .. وكانَ يُلقَّبُ الخلِيعَ والأشقرَ .. وعُمِّـرَ عُمرًا طويلًا حتى قاربَ المائةَ السنةَ، وماتَ فِـي خلافةِ المستعينِ أو المنتصِرِ"[1].

لكنَّ **د. شوقي ضيف** يُـخالِفُ الأصفهانيَّ فيرَى أن الحسينَ بنَ الضحاكِ كانَ تلميذًا لأبي نواسٍ فِي أشعَارِ الخمرِ والمجونِ، وأنه مَنْ حَاكَى أبا نواسٍ فِيهمَا وليسَ العَكْسُ، وقَـدْ وُجِدَتْ مُشابهَاتٌ بينَ الشاعريْنِ جَعلتْهما مقترنينِ، غيرَ أن ابنَ المعتزِّ يَرى أن الحسينَ بن الضحاكِ كَانَ أنقَى مِن أبي نواسٍ شِعرًا وأقلَّ تَخليطًا؛ حيث كان أبو نواس يَختلِطُ بأبناءِ الشعْبِ البَغداديِّ من المجَّانِ وغَيرِهم فِي الحاناتِ والأديرةِ، وكانَ لَا يَرتفِعُ بلغتِهِ وألفاظِهِ عنهُم، أما الحسينُ فكان فِي جمهورِ حياتِهِ يَعيشُ فِي قصورِ الخلفاء والوزراءِ، فكانَ يُعنَى أشدَّ العناية بلغتِهِ وألفاظِهِ، وفِي شعرِهِ بعضُ الحشمَةِ والتورُّعِ عنْ إذاعةِ مَا فَحشَ فِي الناسِ، وقَلَّما اعترَفَ باقتـرَافِ مُنكَرٍ، وأبو نواسٍ بخلافِ ذلكَ، لَا يَحتشِمُ وَلَا يُخفِي مِنْ آثَامِهِ شَيئًا[2].

وَمِنْ نماذجِ شعرِ الحسيْنِ الماجنِ، ما رواه عنهُ صاحبُ الأغانِـي، قال: "كانَ حُسَينُ بنُ الضحَّاكِ ليلةً عِندَ الواثقِ، وقدْ شَرِبُوا إلَى أنْ مضَى ثُـلُثُ الليلِ، فأمرَ بأنْ يَبِيتَ مكانَه. فلَما أصبحَ خَرجَ إلَى الندمَاءِ

(1) الأغاني: 7/ 146.

(2) انظر د. شوقي ضيف: العصر العباسي الثاني: ص 463، 464.

وهُم مُقيمُونَ، فقالَ لحسينٍ: هلْ وَصفْتَ ليلتنَا الماضيةَ وَطِيبَها؟ فقالَ: لَـمْ يَمضِ شَيءٌ وأنا أقول الساعةَ، وفكَّـرَ هُنيهَةً ثُم قالَ:

حَـثَّـتْ صَبُوحِـي فُـكَاهَـةُ اللَّاهِـي وَطَـابَ يَـوْمِـي بِقُـرْبِ أَشْـبَاهِـي
فَاسْتَـثِـرِ اللَّهْـوَ مِـنْ مَـكَامِنِـهِ مِـنْ قَـبْـلِ يَـوْمٍ مُـنَـغِّصٍ نَـاهِـي
بِـابْـنَـةِ كَـرْمٍ مِـنْ كَـفِّ مُـنْـتَطِـقٍ مُـؤَزَّرٍ بِـالْـمُـجُـونِ تَـيَّاهِ
يَـسْقِـيكَ مِـنْ طَـرْفِـهِ وَمِـنْ يَـدِهِ سَـقْـيَ لَطِـيفٍ مُـجَـرِّبٍ دَاهِـي
كَأْسًا فَـكَأْسًا كَـأَنَّ شَـارِبَـهَا حَـيْـرَانُ بَـيْـنَ الـذَّكُورِ والسَّاهِـي

قَالَ: فأمرَ الوَاثِـقُ بِـرَدِّ مَـجلسِهِ كَهيئتِهِ، واصطَبَحَ يومَهُ ذلكَ معَهم، وقالَ: نُحققُ قولكَ يا حُسَينُ ونقضي لكَ كلَّ أَرَبٍ وحَاجةٍ"[1].

رَابعًـا – شِعْـرُ الـزُّهْدِ:

ثمةَ ملاحظة يَنبغِي لفتُ الأنظارِ إليها؛ فَـرُغمَ وضوحِ الظواهر السلبية الثلاثِ (الشعوبيةِ – الزندقةِ – المجونِ)، واستعلانِها فِـي الحياةِ العباسيةِ، فإنَّ ذلكَ لَا يَعني بالضرورَةِ هَيمَنَتها على الحيَاةِ كُلِّها، أو على طوائفِ الأمةِ الإسلاميةِ، بحَيثُ يُـتَـوَهَّمُ أنَّ حياةَ المجتمَعِ العباسيِّ قدْ أَسْلَمتْ قِيادَها تمامًا للشعوبيةِ والزندقَـةِ والمجُونِ، وأنَّ هذهِ الحياةَ قَد تحلَّلتْ مِنْ كُل قيودِ العقيدةِ والأخلاقِ.

كَـلَّا. فقد ظَلَّتِ الأمةُ فِي مجموعِهَا حريصَةً عَلَى مبادِئِ الإسلامِ وأصولِه، تأتَـمِرُ بأمرِهِ وتَنتَهِي عمَّا نهَى اللهُ عنهُ، وإنما بَـقِيَتْ تِلكَ الظواهرُ السلبيةُ وقفًا عَلَى طوائفَ بعينِهَا؛ مثلَ بعضِ الموالِـي الذينَ آمنوا بسلْطَانِ الإسلامِ، ولَـمْ يُؤمِنُوا بِالإِسْلَامِ ذَاتِـهِ، فَاعتنقوهُ تَـقِيَّـةً، وَأَبْطَنُوا عقائدَهم القدِيمَةَ، وكذلكَ بعض سَرَاةِ المجتمَعِ المترَفِينَ المتخَمِينَ مِنَ المالِ، والمجونُ أخُو الثرَاءِ وَتَابِعُهُ، يَسيرُ وَراءَهُ حَيثُمَا سَارَ.

(1) الأغاني: 7/ 160.

وَلَقدْ أَسْهَمَتْ بعضُ المؤلفَاتِ فِـي تَـرويجِ تلكَ الصورَةِ الشائِهَةِ عَنِ المجتمَعِ العباسيِّ، حِينَ أفرطَتْ فِـي تَصويرِ جَانبٍ واحدٍ مِنْ جوانبِ الحياةِ دونَ الجوانبِ الأخرَى، ككِتَابِ (الأغَانِـي)، ومَا أصدقَ الأستاذَ **أحمد أمين** حينَ قالَ: "إنَّ هذَا الوصفَ الذِي وصَفنا ليسَ حَالَ الناسِ جميعِهم، فما كانوا كلُّهم أغنياءَ وَلا كُلهم هَازِلينَ، ومَا كانَ ذلكَ لأمَّـةٍ مِنَ الأممِ فِـي أيِّ عَصرٍ مِنَ العصورِ، وَمَا كانَ العَالَـمُ الإسلاميُّ كله هوَ العِرَاقَ وَمَلاهيهِ، وَلَا كانَ العِراقُ يَحيا هذِهِ الحياةَ، فإذَا أنتَ قرأتَ كِتابَ الأغانِي، وتَنقلتَ فِـي صُحُفِهِ مِن ضَربٍ من اللهوِ إلَى ضَربٍ، أو قَرأْتَ دِيوان أَبي نواسٍ فرأيتَ أكثرَه خمرًا ومُـجونًا؛ فلَا تظن أن ذلكَ يمثل حياةَ العصرِ بأجمعِهَا؛ إنما هوَ يُمثلُ ناحيةً واحدةً من نواحِيها المتعددةِ، ووجوهِهَا المختلفَةِ، وَعُذْرُ الأغانِـي أنه أُلِّفَ فِـي طبقَاتِ المغنينَ، والمغنُّونَ فِـي كل عصرٍ موطنُ اللهوِ وبيئةُ المجُونِ"[1]، ويقولُ فِـي موضعٍ آخرَ مِنْ كِتابِهِ: "وَكَما صُوِّرتْ حياةُ اللهوِ والمجونِ فِـي كتابِ الأغانِي ودواوينِ الشعراءِ، صُوِّرتْ حياةُ الإيمانِ فِـي تراجمِ العلماءِ أمثَال: طبقَات ابنِ سَعد، وطبقات المحَدِّثينَ. فإذَا أنتَ قرأتَ الأغانيَ ظننتَ أن الحياةَ كلَّها لَـهْوٌ ومجونٌ وإباحةٌ، وَإِذَا قَرأتَ طبقاتِ المحدِّثينَ والمتصوفَـةِ خِلْتَ أنَّ الحياةَ كلَّها دِينٌ وَوَرَعٌ وَتَـقْوَى، وَتُـنصِفُ إنْ أنتَ اعتقَدْتَ أنَّ الحياةَ كانَتْ ذاتَ صُنوفٍ وألوانٍ وأنَّ المدنيةَ العباسيةَ كانتْ ككُلِّ المدَنِيَّاتِ: مَسجدٌ وحَانَـةٌ وقَارِئٌ وزَامِرٌ، ومُتهجدٌ يترقبُ الفجرَ ومُصطبحٌ فِـي الحدائقِ وَسَاهرٌ فِـي تَهجدٍ، وسَاهرٌ فِـي طَربٍ، وتُخمةٌ مِنْ غِنًى، وَمَسكَنةٌ مِنْ إمْلاقٍ، وشَكٌّ فِـي دينٍ، وإيمانٌ فِـي يقينٍ، كل هذَا كانَ فِـي العصرِ العباسيِّ، وَكُلُّ هَذَا كَانَ كَثيرًا"[2].

وَمِنْ ثَم لا تَكتَمِلُ صورةُ المجتمَعِ العباسيِّ حتى نَضَعَ الجوانِبَ الوَضِيئةَ بجوارِ الجوانبِ السلبيةِ؛ فلئنْ كَثرَتِ الحاناتُ والخماراتُ، ودورُ اللهوِ، لَقَـدْ كَـثُرتِ المساجدُ ومجالسُ العلماءِ والـزُّهادِ والعُـبَّادِ

(1) ضحى الإسلام 1/ 142.

(2) السابق: 1/ 179.

والواعظينَ، ناهيكَ بأنَّ الظواهِرَ السلبيةَ لَـمْ تكنْ شَرًّا محضًا، فلقدِ استفزَّتِ العقلَ العربي حينَ وضَعَتْ أمامَـهُ أسئلةً شائكةً، وشُبهَاتٍ حَرِجَـةً، تَمخضَتْ عَنْ حَركةٍ عِلميةٍ واسعةٍ تُجادِلُ الزنادقةَ والملحِدَينَ والشاكِّينَ، وترد علَيهم شُبهاتِهم، مِنْ خلالِ المناظراتِ، وقد كانت سُهمَـةُ المعتزلةِ فِـي مقاومةِ الإلحادِ والزندقَـةِ وَفِـيرةً.

وَمهمَا يَكُنْ من أمرٍ فإنَّ تَيارَ الزهد فِي الحياةِ العباسيةِ كانَ يُقابِلُ تَيارَ المجونِ والترَفِ والزندقَةِ، وقد تكونُ مثلُ هذهِ الظواهرِ السلبيةِ ذاتِهَا العاملَ الأولَ فِـي نشأةِ تيارِ الزهدِ بوصفِهِ رَدَّ فعلٍ لهذِهِ التياراتِ المنحرفَةِ عن قِيمَ الإسلامِ والحياةِ العربيةِ، ثم جَدَّتْ أمورٌ أخرَى فَأسهَمَتْ فِـي نشأةِ تَيارِ الزهدِ، ومِنهَا: كثرةُ النُّساكِ والوُعاظِ فِي الحياةِ العباسيةِ، حيثُ وُجِدَ مِنهُم مَنْ يَدخُلُ علَى الخلفاءِ قصورَهم فَيعِظُونَهم مثل: عَمرو بن عُبيد وَاعظِ المنصورِ، وصَالحِ بنِ عبدِ الجليلِ واعظِ المهديِّ، وابنِ السَّمَّاكِ وَاعظِ الرشيدِ، وزِدْ إليهم: سُفيَانَ الثوريّ (ت 161هـ)، ودَاودَ الطائي (ت 165)، وعبدَ الله بنَ المبارَكِ (181هـ) والفُضيْلَ بنَ عِياضٍ، وسفيانَ بنَ عُيينةَ (ت 198هـ)، وإبراهيمَ بنَ أدهَمَ البلخِيَّ (ت 160هـ)، ورابعةَ العدويةَ (ت 180هـ)، ومالِكَ بنَ دِينار.. وغيرَهُم ممنِ انصرَفُوا عَنْ مَلذَّاتِ الحياةِ الدنيا ونعيمِهَا، مؤثرينَ حياةَ التبتلِ والتقشفِ ابتغَاءَ نَعيمِ الآخرَةِ، وقد كانَ هؤلاءِ الزهَّادُ العُـبَّادُ نَواةَ التصوفِ الإسلاميِّ.

ولقدْ كانَ فِـي مبادئِ الإسلامِ ونصوصهِ قُرآنًـا وسُنةً ما يُـزَهِّدُ فِـي الحياةِ العاجلةِ ومَفاتنِها، ويُـرَغِّبُ فِـي الحياة الآجلةِ ونعيمِهَا الخالدِ، كقولهِ تعالَى: ﴿**بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا * وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾، وغيرِهَا مِنَ الآياتِ الكثيراتِ، أو قولِ النبيِّﷺ: "لَـوْ كَانَتِ الدنيَا تَعدِلُ عندَ الله جَناحَ بعوضةٍ مَا سقَى كَافِـرًا منهَا شَربةَ مَاءٍ"، وكذلكَ قَولِهﷺ: عن جابرِ بنِ عبدِ الله – رضيَ الله عنهمَا – قالَ: "مَـرَّ

رسولُ الله ﷺ بالسوقِ دَاخِلًا مِنْ بَعضِ العَالِيَـةِ[1] والناسُ كَـنَـفَـتَيْـهِ[2] فَمَـرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ[3] مَيْتٍ فتناولَه فأخذَ بأذنِهِ، ثُمَّ قالَ: أيكُم يُحبُّ أنَّ هذَا لَه بدرْهَمٍ؟، فقالُوا: مَا نُحبُّ أنهُ لنَا بشيءٍ، وَمَا نصنعُ بِهِ؟ قالَ: "أتُـحبُّونَ أنهُ لَكُم؟" قَالُوا: وَاللهِ لَو كانَ حَـيًّا كانَ هذا السَّكَكُ بِهِ عَيبًا، فكَيفَ وهوَ مَيْتٌ؟ قالَ: "فواللهِ لَلدُّنيَا أَهوَنُ علَى اللهِ مِنْ هَذَا عَليكُمْ"، ومثلُ هذَا: مَا رُوِيَ عن المستوردِ بنِ شَدَّادٍ رضيَ الله عنه قالَ: "كُنتُ معَ الركْبِ الذينَ وَقَفوا مَعَ رسولِ الله ﷺ على السَّخْلَةِ الميْـتَةِ فقالَ رسولُ الله ﷺ: "أَتَـرَوْنَ هَذهِ هَانتْ عَلَى أهلِهَا حينَ أَلْقَوْهَا؟، قالُوا: مِنْ هَوانِهَا أَلقَوْهَا يا رسولَ الله قَالَ: "فوَالذِي نفسِي بيدِهِ للدنْيا أهوَنُ عَلَى الله – عز وجلَّ – مِنْ هذِهِ عَلَى أهلِهَا"، وبذلكَ يُمكنُنَا أن نَـرُدَّ جُذورَ الزهْدِ فِـي العصرِ العباسيِّ إلَـى عَصرِ النبيِّ ﷺ، وصَحبِهِ الكِرَامِ.

هَذَا، وَقَـدْ أَسهَمَتْ عقائدُ ومذاهبُ أخرَى غيرُ الإسلامِ فِـي وجودِ نمطٍ مِنَ الزهدِ فِـي العصرِ العباسيِّ، حيثُ نَجِدُ **جُولد تسيهَر** يَـرُدّ زُهدَ النسَّاك فِـي هذَا العصرِ إِلَى زُهدِ الرهبَانِ المسيحِيينَ المنتشِرينَ فِـي هذَا العصْرِ تَـارةً، وإِلَى تعَالِيمِ الأفلاطونيةِ المحدثةِ وَمَا يَتصِلُ بهَا مِنْ مذهبِ الفَيضِ وَوَحْدَةِ الوجودِ، وكَذلكَ بُوذيَّـةِ الهندِ تارةً أخرَى[4]، فضلًا عنْ أنَّ بعضَ زُهادِ العصرِ قَد تأثروا بتعاليمِ المانوية التي تُـرَغِّبُ عَنْ مَتاعِ الحياةِ الدنيَا، حتى ليقولُ **ابنُ المعتزِّ**: "إنَّ لَه (أي: مَانِـي) فِـي ذلكَ مَا ليسَ لأحَدٍ"، وممن رُمي بذلكَ صَالحُ بن عبد القدوسِ وأبو العتَاهيةِ، مما يَعنِي أننَا بإزاءِ نَمطَينِ مِنَ الزهْدِ فِـي

(1) أي: كان دخوله ﷺ من بعض العالية إلى السوق، والعالية والعوالي: أماكن بأعلى أراضي المدينة، وأدناها على أربعة أميال وأبعدها من جهة نجد ثمانية أميال قاله ابن الأثير. عون المعبود – (ج 1 / ص 208) .

(2) أي: على جانبيه.

(3) قال القاضي عياض فِـي المشارق: "الأَسَكُّ" يطلق على ملتصق الأذنين وعلى فاقدهما وعلى مقطوعهما وعلى الأصم الذي لا يسمع، والمراد هاهنا الأول. وقال ابن الأثير: المراد الثالث. وقال النووي فِـي شرح مسلم والقرطبي: المراد: صغير الأذنين.

(4) انظر **جولد تسيهر**: العقيدة والشريعة فِـي الإسلام، طبعة دار الكاتب المصري، ص 131، 136.

العصرِ العباسِيِّ: **أولهما – الزهدُ الإسلاميُّ** (القائِمُ على مبادئِ الإسلامِ وتعاليمِه)، **وثانيهما – الزهدُ غيرُ الإسلاميِّ** (المتأثِّرُ بعقائدَ أو مذاهبَ أخرَى غيرِ الإسلامِ كالمسيحيةِ والبوذيةِ والأفلاطونيةِ والمانويةِ).

وَلَقَدْ فَطِنَ الخليفةُ المهدِيُّ إلَى ذَلِكَ الزهْدِ المبنيِّ علَى عقائِدَ مُنحرفَةٍ، ودَلِيلُ ذلكَ وَصيتُه لابنِهِ موسَى الهادِي بمواجهَةِ الزنادقةِ، حيثُ أوصَى **المهديُّ** ولدَه ألَّا يُـخدَعَ بظاهرِ تِلكَ الفئَةِ، فقَالَ: "يَا بُنيَّ إذَا صَارَ الأمرُ إليكَ فَتجَـرَّدْ لهذهِ العِصَابَةِ (يعني أصحابَ مَانِـي)، فإنَّـها تَدعُو الناسَ إلى ظاهرٍ حَسَنٍ كاجتنابِ الفواحِشِ، والزهدِ فِـي الدنيَا، والعمَلِ للآخرَةِ، ثم تُـخرِجُهَا مِنْ هَذَا إلى تَحريمِ اللحومِ، ومَسِّ الماءِ الطهُورِ، وتَركِ قَـتْـلِ الهوَامِّ تَحرجًا، ثم تُخرِجُها إلى عِبادةِ اثنينِ: أحدُهما النورُ والآخَرُ الظلمةُ، ثم تُبيح بعدَ هذَا نِكاحَ الأخوَاتِ والبنَاتِ، والاغتسالَ بالبولِ، وسَرقةَ الأطفالِ مِنَ الطرقِ، لِتنقِذَهُم مِنْ ضَلالِ الظلمةِ إلَى هدايةِ النورِ، فارْفَعْ فِيهَا الـخَشَبَ (جُذوعَ الصَّلْبِ)، وجَـرِّدِ السيفَ فيهَا، وتَقَـرَّبْ بأمرِهَا إلَى اللهِ. فإني رَأيتُ جَـدِّيَ العباسَ رضيَ الله عنهُ فِـي المنامِ قَدْ قَـلَّـدَنِـي سَيفيْنِ لقَتْلِ أصحَابِ الاثْنَـيْنِ"

وَيَبدُو أنَّ هذَا النَّمطَ الثانيَ مِنَ الزهْدِ، وَلَا سِيَّما مَا تأثَّـرَ منهُ بعقائدِ **مَانِـي**؛ كانَ وراءَ تشكيكِ **د. عز الدين إسماعيل** فِي تيارِ الزهدِ فِي العصرِ العباسيِّ، حتى لقد جعلَه وَجهًا آخرَ لتيارِ المجونِ والزندقةِ فِي العصرِ العباسيِّ، ولَا سِيما أنَّ بعضَ شُعرائِـهِ قَد اتُّـهِمُوا بالزندقَةِ كابنِ عبدِ القدوسِ وأبي العتاهيَةِ، وأَبي نُواسٍ، ولقدْ توقَّفَ أمَامَ الأَخِيريْنِ على نحوٍ خاصٍّ، فرأَى أَوَّلَهما (أبَا العتاهية) داعيةً إلى الزهدِ وليسَ زَاهِدًا حَقًّا، ورأَى ثَانِيهما (أبا نُواسٍ) مُـجرَّدَ تَائبٍ عَما غرقَ فيهِ مِنْ ذنوبٍ وآثَامٍ، نَاهِيكَ بأنَّ كَثيرًا مِنْ قصائدِهِ فِي الزهدِ لَا تَصِحُّ نسبتُها إليهِ، وَمِنْ ثَـمَّ جَعلَ عنوانَ الفصلِ السابعِ الذِي تناولَ فيهِ ظاهرَتَـي المجُونِ والزهدِ: (**وَجْهَانِ لعملةٍ واحدةٍ**: الوجه الأوَّل: الوجهُ الماجنُ، والوجهُ الثاني: الوجهُ الزاهدُ)[1].

(1) راجع ذلك الفصل فِـي كتاب **د. عز الدين إسماعيل**: فِـي الشعر العباسي من ص 237، حتى ص 298.

وَرُبَّما يَصِحّ كلامُ د. عز الدينِ إسماعيل إذَا كُنا نَتحدثُ عن طائفةِ الشعراءِ الزاهِدينَ، بلْ عنْ طائفةٍ خاصةٍ منهُم، عَنيْتُ مَنْ رُمِيَ منهم بالزندقةِ أو المجونِ كَابنِ عبدِ القدوسِ وأبي العتاهيةِ، وأبي نُواسٍ. أمَّا إذَا كُنا نَتحدثُ عن تيارِ الزهدِ فِي الحياةِ العباسيةِ بوجهٍ عامٍّ، فَلَا يَصِحُّ أنْ نُعمِّمَ فنقولَ: "وَبَعدُ، فكَما امتدَّ تيارُ المجونِ وتَطورَ عبرَ القرونِ، كَذلكَ امتدَّ تَيارُ الزهدِ وتَطورَ، ثم انتهَى إلى نظامٍ خاصٍّ فِي السلُوكِ والتعبدِ، هوَ مَا عُرِفَ بالتصوفِ.. ولكنْ كَما كَانَ المجُونُ احتِجَاجًا سَلبيًّا علَى الواقِعِ، كَذلكَ كانَ التصوفُ، إلَّا فِي حالاتٍ نادرة فِي التاريخِ، شاركَ فيهَا الصوفيةُ مشاركةً عمليةً فِي الانتفاضَاتِ الشعْبيةِ.. **إنهما – أخيرًا، وبكلِّ إيجاز – وَجهَانِ لعملةٍ واحدةٍ، إذا فَسدَتْ مِن أَحَدِ وجهيهَا فَهِيَ لَا مَحَالةَ فَاسِدةٌ مِنَ الوَجهَينِ جَمِيعًا"**[1].

أَقُولُ: لَا يَصحُّ التعميمُ إذا كانتْ نظرتُنا كليةً لا جزئيةً؛ ذلكَ أنه لَيسَ كلُّ مَنِ اتُّهمَ بالزندقةِ فِي العصرِ العباسيِّ كانَ زِنديقًا حَقًّا، كما أنَّ زهَّادَ ذلكَ العصرِ لَمْ يكونُوا جَميعًا شُعرَاءَ، فَكانَ مِنهم الشاعرُ وغيرهُ، وحَقًّا أنَّ بعضَ شُعراءِ الزهْدِ رُمُوا بالزندقَةِ، أو كانُوا دُعاةَ زهدٍ لَا زَاهِدينَ حَقًّا، لكنْ مِنَ الحقِّ كذلكَ أنه قَد وُجِدَ زُهادٌ حَقيقيونَ فِي العصرِ العباسيِّ، وقَد أشرنَا إلى بَعضِهم مِنَ العُبَّادِ والنُّسَّاكِ والوعَّاظِ، ولئنْ لَمْ يُنسبْ إلى بعضِهم شِعرٌ أو يُعرَفوا بهِ، لقدْ كانتْ أقوالُهم ومَواقِفُم فِي الزهدِ والتقوَى تَمتلئُ بها كُتُبُ التراجِمِ والطبقَاتِ.

وفِي ذَرْعِنَا أن نمثلَ للفريقينِ علَى سَواءٍ:

فأمَّا **الفريقُ الأولُ** (الذِي اتهِمَ شعراؤُهُ بالمجونِ أو الزندقَةِ) فأشهرُهم ثَلاثَةٌ:

(1) السابق: ص 298.

1- صَالحُ بنُ عبدِ القدوسِ: يَـدورُ كثيرٌ مِن شِعرِهِ حولَ التنفيرِ مِنَ الدنيَا ومتاعِهَا الزائلِ، وذِكْـرِ الموتِ والفناءِ، والحثِّ علَى مكارمِ الأخلاقِ وطاعةِ اللهِ، ولعلهُ يريدُ إلهَ النورِ والخيرِ، مـمَّا جعلَ ابنَ المعتزّ يَشكُّ فيما نُسِبَ إليهِ مِنْ زندَقةٍ مُستشْهدًا بقَولهِ:

وَلَيسَ بِـعَجْـزِ الْـمَرءِ إِخْطَاؤُهُ الغِـنَى وَلَا بِاحْتِيَالٍ أَدْرَكَ الْـمَالَ كَاسِبُـهْ
وَلَـكِنَّـهُ قَـبْـضُ الإِلَـهِ وَبَـسْـطُـهُ فَـلَا ذَا يُـجَارِيـهِ ولَا ذَا يُـغَالِـبُـهْ

يَقولُ ابنُ المعتزِّ: "فيَا عَجبًا كيفَ يُمكِنُ أنْ يَقولَ زِنْـديقٌ مثلَ هذَا القولِ؟ وَكيفَ يَـكونُ قائلُـهُ زِنْديقًا؟!"[1].

كما غلبتِ الحِكمةُ على شِعرِه فِـي تقريرِ محاسنِ الأخلاقِ والشِّيَمِ، حتَّى قِيلَ إنَّ فِـي ديوانهِ ألفَ مَـثَلٍ لِلعرَبِ وألفَ مَـثَلٍ لِلعَجَمِ، ولقدْ أَضَرَّتْ كثافَـةُ الحِكَمِ بِشعرِهِ، فأوْرثَـتْـهُ جَفافًا وتقريرًا، وأَعوزتْـهُ إلَى التخييلِ وهو رُوحُ الشعرِ ومَاؤُه، وَقَد فَطِنَ الجاحظُ إلَى ذَلِكَ فقالَ: "لَو أنَّ حِكَمَهُ كانتْ مفَـرَّقةً فِـي قصائدَ مختلفةٍ لسَارتْ فِـي الآفاقِ، ولكنَّ القصيدَةَ إذَا كانَتْ كلها أمثَالًا لَـمْ تَسِرْ ولم تَـجْـرِ مَـجْرَى النوادرِ، وَمَتى لَـمْ يَـخرُجِ السامِعُ مِنْ شَيءٍ إِلَى شَيء لَـمْ يكن لذلِكَ عِندَه مَوقِعٌ"[2].

ومِنْ نَـماذِجِ حِكَمِهِ قولُه:

لَا يَـبْـلُـغُ الْأَعْـدَاءُ مِـنْ جَـاهِـلٍ مَـا يَبْـلُـغُ الْـجَاهِلُ مِـنْ نَـفْسِهِ
وَالشَّيْـخُ لَا يَـتْـرُكُ أَخْـلَاقَـهُ حَـتَّى يُـوَارَى فِـي ثَـرَى رَمْسِهِ

وقـولُه:

اخْـتَـرْ قَـرِينَـكَ وَاصْطَـفِـيهِ تَـفَاخُـرًا إِنَّ القَـرِينَ إِلَـى الْـمُـقَارَنِ يُـنْـسَبُ

(1) انظر د. شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص 397.

(2) انظر السابق، ص 398، والبيان والتبيين: 1/ 206.

وَدَعِ الكَـذُوبَ فَـلَا يَـكُـنْ لَـكَ صَاحِـبًا إِنَّ الكَـذُوبَ يَـشِينُ حُـرًّا يَصْحَبُ
وَاحْـذَرْ مُصَاحَـبَـةَ اللَّئِـيمِ فَـإِنَّـهُ يُـعْـدِي كَما يُـعْدِي الصحِيحَ الْأَجْـرَبُ
يَـلْـقَاكَ يَـحْـلِفُ أَنَّـهُ بِـكَ وَاثِـقٌ وَإِذَا تَـوَارَى عَـنْكَ فَـهْـوَ الْـعَـقْـرَبُ
يُـعْطِيكَ مِـنْ طَـرْفِ اللسَانِ حَـلَاوَةً وَيَـرُوغُ مِـنْكَ كَـمَا يَـرُوغُ الثَّـعْـلَبُ
وَزِنِ الكَـلَامَ إِذَا نَطَـقْتَ وَلَا تَـكُـنْ ثَـرْثَـارَةً فِـي كُـلِّ نَـادٍ تَـخْطُبُ

2- أبو العتاهية:

يُعَـدُّ أبو العتاهيةِ رائدَ مدرسةِ الزهدِ فِـي الشعر العباسيِّ، وله فِـي ذلكَ أشعارٌ كثيرةٌ، نحو قولهِ:

أَلَا طَـالَ مَـا خَـانَ الزَّمَـانُ وَبَـدَّلَا وَقَصَّــرَ آمَـالَ الأَنَـامِ وَطَــوَّلَا
أَرَى النَّاسَ فِـي الدُّنْيَا مُـعَافًى وَمُـبْـتَلًى وَمَا زَالَ حُكْمُ اللهِ فِـي الأَرْضِ مُـرْسَلَا
كَـفَى عِـبْـرَةً أَنِّـي وَأَنَّـكَ يَـا أَخِـي نُـصَـرَّفُ تَـصْـرِيفًا لَطِيفًا وَنُـبْـتَـلَى
وَمَـا النَّاسُ إِلَّا مَـيِّتٌ وَابْـنُ مَـيِّتٍ تَـأَجَّـلَ حَـيٌّ مِنْـهُمُ أَوْ تَـعَجَّلَا
وَلَا تَـحسَبَنَّ اللهَ يُـخْلِفُ وَعْـدَهُ بِـمَا كَـانَ أَوْصَـى المـرسَلِينَ وَأَرْسَـلَا
هُـوَ المـوْتُ يَـا بْـنَ المـوْتِ وَالبَـعْثُ بَعْـدَه فَمِـنْ بَـيْنِ مَـبْـعُوثٍ مُـخِـفًّا وَمُـثْـقَلَا
وَمِـنْ بَـيْنِ مَسْحُوبٍ عَلَى حُـرِّ وَجْـهِهِ وَمِـنْ بَـيْنِ مَـنْ يَـأْتِـي أَغَـرَّ مُـحَجَّلَا
عَشِقْـنَا مِـنَ اللـذَّاتِ كُـلَّ مُـحَـرَّمٍ فَـأُفٍّ عَـلَـيْـنَا مَـا أَغَـرَّ وَأَجْـهَلَا
رَكَـنَّا إِلَـى الـدُّنْـيَا فَـطَالَ رُكُونُـنَا وَلَسْـنَا نَـرَى الـدُّنْـيَا عَلَـى ذَاكَ مَـنْـزِلَا
لَقَـدْ كَـانَ أَقْـوَامٌ مِـنَ الـنَّاسِ قَـبْلَـنَا يَـعَافُونَ مِنْـهُنَّ الـحَلَالَ المحَـلَّـلَا

وقولِـهِ:

أَيَـا بَـانِـيَ الـدَّنْـيَا لِـغَـيْرِكَ تَـبْـتَـنِي وَيَـا جَـامِـعَ الـدُّنْـيَا لِـغَـيْـرِكَ تَـجْمَعُ
أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الْـمَـرْءَ يَـحْبِسُ مَـالَـهُ وَوَارِثُـهُ فِـيهِ غَـدًا يَـتَـمَـتَّـعُ؟

3- أَبُـو نُـوَاسٍ:

رُغمَ احتواءِ ديوانِ أبِـي نُواسٍ على بابٍ خاصٍّ بالزهدِ، فإن هذَا البابَ – علَى قِلتِـه – لَـمْ يَسْلَمْ مِنَ الشكِّ، فبعضُ الشعرِ الذِي أوردَه الرواةُ لأبِـي نُواسٍ فِـي هذَا البابِ، يُنسَبُ إليهِ تَارةً، ويُنسَبُ إلَى أَبِـي العتاهيةِ أُخْرَى، مِـمَّا حَـمَلَ د. عز الدين إسماعِيل علَى الارتيابِ فيهِ، وعدمِ الثقةِ إِلَّا ببعضِ المقطوعاتِ التِي تَدورُ حولَ التوبةِ، والتماسِ العفوِ والغفرانِ مِنَ اللهِ تعالَى[1]، كقولِهِ:

يَـا رَبِّ إِنْ عَـظُـمَتْ ذُنُـوبِـيَ كَـثْـرَةً ... فَـلَـقَدْ عَـلِمْتُ بِـأَنَّ عَفْـوَكَ أَعْـظَـمُ
إِنْ كَـانَ لَا يَـرْجُـوكَ إِلَّا مُـحْسِنٌ ... فَـبِـمَنْ يَـلُوذُ وَيَـسْتَجِـيرُ الْـمُـجْـرِمُ
أَدْعُـوكَ رَبِّ كَـمَا أَمَـرْتَ تَـضَـرُّعًا ... فَـإِذَا رَدَدْتَ يَـدِي فَـمَنْ ذَا يَـرْحَـمُ؟
مَـا لِـي إِلَـيْكَ وَسِيلَـةٌ إِلَّا الـرَّجَا ... وَجَـمِيلُ عَـفْوِكَ ثُـمِّ أَنِّـيَ مُـسْلِمُ

أو قَـولِـهِ:

أَيَـا مَـنْ لَـيْسَ لِـي مِـنْـهُ مُـجِيـرُ ... بِـعَـفْـوِكَ مِـنْ عَـذَابِـكَ أَسْـتَجِيـرُ
أَنَـا الْـعَبْـدُ الْـمُـقِـرُّ بِـكُـلِّ ذَنْـبٍ ... وَأَنْـتَ السَّـيِّـدُ الْـمَوْلَـى الْـغَـفُورُ
فَـإِنْ عَـذَّبْـتَـنِـي فَـبِسُوءِ فِـعْلِـي ... وَإِنْ تَـغْـفِـرْ فَـأَنْـتَ بِـهِ جَـدِيـرُ
أَفِـرُّ إِلَـيْكَ مِـنْكَ وَأَيْـنَ إِلَّا ... إِلَـيْكَ يَـفِـرُّ مِـنْـكَ الْـمُستَجِـيـرُ؟!

وَأمَّا **الفريقُ الثانِـي (الزهَّادُ الحقيقيّونَ)**، فأكثرُ مَا يُروَى عنهُم أقوالٌ ومواقفُ أو سُلوكياتٌ فِـي الزهدِ، وقدْ كانَ فِيهِم شُعراءُ، مثلَ:

1 – مَالِكِ بنِ دِينَار:

(1) انظر د. عز الدين إسماعيل: فِـي الشعر العباسي الرؤية والفن، ص 296.

كَانَ مَالِكُ مُـحدِّثًا نَاسكًا، لَا يَزالُ يُـحدِّثُ الناسَ فِـي مجالسِهِ عَنِ الموتِ، حتَّى لتكادُ تخنقُه العبـرَاتُ، وله أشعارٌ مختلفةٌ يتحدَّثُ فيهَا عَنِ القبورِ وأهلِهَا، ويَدعُو فِيهَا إِلَى الاتعَاظِ وَالاعتبارِ بِمَنْ سَبقُوا، كقَولِـهِ:

أَتَـيْـتُ الْـقُـبُورَ فَـنَادَيْـتُـهُـ ـنَّ أَيْـنَ الْـمُـعَـظَّـمُ وَالْـمُحْـتَـقَـرْ
وَأَيْـنَ الْـمُـدِلُّ بِـسُلْـطَانِـهِ وَأَيْـنَ الْـمُـزَكَّى إِذَا مَـا افْـتَـخَـرْ
تَـفَانَـوْا جَـمِيعًا فَـمَا مُـخْـبِـرٌ وَمَـاتُـوا جَـمِيعًا وَمَـاتَ الْـخَـبَـرْ
تَـرُوحُ وَتَـغْـدُو بَـنَاتُ الـثَّـرَى فَـتَمْـحُو مَـحَاسِنَ تِـلْكَ الـصُّـوَرْ
فَـيَا سَـائِـلِـي عَـنْ أُنَـاسٍ مَـضَوْا أَمَـا لَـكَ فِـيمَا تَـرَى مُـعْـتَـبَـرْ

2- عَبْـدُ اللهِ بنُ المبارَكِ:

جَـمعَ عبدُ اللهِ بنُ المبارَكِ بينَ معارِفَ عدةٍ: الحديثِ والفقهِ علَى مَذهب أَبِـي حنيفةَ، والأدَبِ والنحوِ واللغةِ والشعرِ والفصاحةِ، وكانَ إِلَـى ذَلِكَ عَابدًا زَاهدًا، لكنَّ زُهدَه لَـمْ يَنتَـهِ بِهِ إِلَى عزلةٍ أَوْ سلبيةٍ، وإنما حَـملَه عِلمُه وفِقهُه علَى الربَاطِ على الثغورِ، فكَانَ يُجاهِدُ الرومَ، ويَعِظُ الجنودَ ويُحمسُهم للقتالِ، فَصَحَّحَ بذلكَ فِكرةً أشاعَها المستشرقونَ وأذنابُـهم عنْ زُهَّادِ المسلمينَ وعُـبَّادِهم بأَنَّـهم كانُوا سَلبيينَ منعزلينَ عن تَيارِ الحياةِ، وَوَاجباتِ دِينِهم، ومِـمَّا يُـرْوَى عنِ ابنِ المبارَكِ أَنَّـه أَمْـلَى وهوَ بطرسُوسَ رسَالةً شِعريةً وجَّهَ بِهَا إلى الفُضيلِ بنِ عِياضٍ الناسكِ المشْهورِ سنةَ (177هـ)، وَكَانَ مُـجَاوِرًا بِمَكَّـةَ[1]:

يَـا عَـابِـدَ الْـحَـرَمَـيْـنِ لَـوْ أَبْـصَـرْتَـنَا لَـعَلِمْتَ أَنَّـكَ فِـي الْعِـبَادَةِ تَـلْـعَبُ

(1) انظر د. شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص 403.

التطورُ والتجديدُ فِـي الشعرِ العباسيِّ

مِن عواملِ التطورِ والتجديدِ فِـي أدبِ العصـرِ العباسِيّ:

شَهِدَ العصـرُ العباسيُّ نهضةً ثقافيةً كبرى فِـي تاريخِ الحضارةِ الإسلاميةِ، انصهرتْ فيها الثقافاتُ المختلفةُ كالفارسيةِ واليونانيةِ والهنديةِ معَ الثقافةِ العربيةِ، فضْلاً عنِ التطورِ والتحضرِ الذِي أصابَ الحياةَ وتَـعدُّدِ مُقومَاتِ التـرَفِ فِـي المجتمَعِ العباسيِّ، وازدهَارِ فنِّ الغناءِ وشُيوعِ الكلماتِ الشعريةِ الرقيقةِ التي تُغَنَّى. بالإضافةِ إلى رَواجِ سُوقِ الشعرِ والشعراءِ طيلةَ العصـرِ العباسيِّ، وتَقريبِ الخلفاءِ والأمرَاءِ للشعرَاءِ، وإجرَاء المنافسَاتِ الأَدبيةِ بينَهم فِـي المجالسِ الأدبيةِ. وقدْ تأَثَّـرَ الشعْرُ بهذهِ المؤثرَاتِ فتطورَ تَطورًا مَلحُوظًا شَمِلَ الكثيرَ مِنْ جَوانبِهِ، تَـمثَّـلَ هذَا التطورُ فِـي ظهورِ بَعضِ مَلامحِ التجديدِ الفنيِّ فِـي الشعْرِ سوَاء فِـي الأغرَاضِ أو المعَانِـي والألفاظِ أو الموسيقَا.

وَمِن ثَـمَّ يُمكنُ تحديدُ أبرَزِ ملامحِ التطورِ والتجديدِ فِـي الشعرِ العباسِـيّ فِـي: الموضوعَاتِ والأغراضِ، والمعانِـي والأفكارِ والصوَرِ، والألفاظِ والأسَاليبِ، والأوزانِ والقوَافِـي.

أَوَّلًا: التطورُ والتجديدُ فِـي الموضوعَاتِ والأغْـرَاض الشِّعريَّـةِ:

1- الْـمَدْحُ:

ازدهرَ شِعرُ المدحِ وَكثرَ فِـي العصـرِ العباسيِّ؛ إذْ تَعددَتْ شخصياتُ الممدوحينَ، وتَنوَّعَ الشعراءُ تَبعًا للامتدادِ الزمَانِـي والاتساعِ المكَانِـي، فَضْلاً عَنْ رَغبةِ الشعرَاءِ فِـي التكسُّبِ، وقُدرَةِ الممدوحينَ علَى العطاءِ، حتَّى غدَا الْـمدْحُ لَونًا مِنَ الأدَبِ السياسيِّ، وأصبحَتْ معَانيهِ أكثرَ مَيلًا إلَى التخصصِ.

فَـغَـرَضُ الْـمدْحِ منَ الأغرَاضِ الشعريةِ التِي اهتمَّ الشعرَاءُ بِـهِ طَـلبًا للنوَالِ والعطَاءِ فِـي العصُورِ الأدبيةِ المختلفةِ، وَقَـدْ تطورتْ معانِـي قصيدةُ المدحِ فِـي العصـرِ العباسيِّ فَمالَتْ إلَى التخصصِ استجابةً لمتغيرَاتِ العصـرِ، ومستحدثَاتِ الحياةِ؛ فَـلَمْ تَعُدِ المعانِي وَقْـفًا علَى الإشادةِ بمطلَقِ الشجاعةِ وبالغِ الكرَمِ والجودِ وشَرَفِ المكَانةِ ورِفعَةِ المنزلَةِ أيًا كانَ الممدُوحُ، وإنَّـما اختلفتْ هذهِ المعانِـي باختلَافِ الممدوحِ خليفةً ووَزيرًا وقَائدًا وكَاتبًا، ومعلومٌ أنَّ صِفاتِ المديحِ كَانتْ عَامةً مِنْ قَبْـلُ تَدورُ فِـي فَلَكِ أربعِ صِفاتٍ، رآهَـا قدامةُ بنُ جَعفرٍ أُصُولَ الفضائلِ الإنسانيةِ، وَهِيَ:

1- العقلُ، ومَا دارَ فِـي فَـلَـكِهِ، مثلَ: العِلم والحِلمِ وثقابةِ المعرفةِ، والبيانِ والسياسَةِ،

والصدعِ بالحجةِ .. وغيرِهَا.

2- **الشجَاعةُ**، وَمِنْ أقسَامِهَا: الحمايةُ والدفاعُ والأخذُ بالثأرِ والمهابةُ والنِّكايَـةُ فِـي العدوِّ، وقَـتْلُ الأقرانِ، وَمَا إِليهَا.

3- **العَدْلُ**، وَمِنْ أقسامِهِ: السماحةُ، وإجابةُ السائلِ، وقُـرَى الأضيافِ، وما شابَـهَ ذَلِكَ.

4- **العِفَّـةُ**، ومِنْ أقسامِهَا: القناعةُ وقلةُ الشرَهِ، وطهارَةُ الإزارِ، ومَا جَرى مَـجرَاهَا.

لِـذَا عابَ قُـدامَـةُ المدحَ بأوصافِ الجِسم كَالـجَمَالِ وَالبَهَاءِ وغيرِهما، كما عَابَ المدحَ بما هوَ عَـرَضِي كالغِنَى، والمدْح بالآباءِ، واستدَلَّ على ذلكَ بعتابِ عبدِ الملكِ بنِ مروانَ لابنِ قَـيْسِ الـرُّقيَّـاتِ، حِينَ قالَ لَه: إنَّكَ قُلتَ فِـي مُصعَبِ بنِ الزبيرِ:

إِنَّـما مُصْعَبٌ شِهَابٌ مِـنَ اللهِ تَـجَلَّتْ عَـنْ وَجْهِـهِ الظَّـلْـمَاءُ

وقُلتَ فِـيَّ:

يَـأْتَـلِـقُ الـتَّاجُ فَـوْقَ مَـفْـرِقِـهِ عَلَـى جَـبِـينٍ كَـأَنَّـهُ الـذَّهَـبُ

حيثُ رَأَى قدامةُ أنَّ مَبعثَ هذَا العِتابِ أنَّ الشاعِرَ عَدَلَ فِـي مَدحِ الخليفةِ عَنِ الفضائلِ النفسيةِ (العقلِ – الشجاعةِ – العِفَّةِ – العدلِ) إلى صفاتٍ جسديةٍ كالبهاءِ والزينَةِ، وقدْ وافَـقَ بعضُ النقادِ رَأْيَ قدامةَ، كَالمرزبَانـيِّ وأبي هلال العسكرِيّ، وخالفَه ابنُ رشيقٍ القيروانِـيُّ؛ حيثُ رأَى أنَّ المدحَ بالفضائلِ النفسيةِ أَشرفُ وأصحُّ، وأمَّا إنكَارُ مَا سِوَاهَا كَـرَّةً واحدَةً، فما أظنُّ أحَدًا يساعِدُ فيهِ، ولَا يُـوافِقُه عليهِ، ومِنْ ثَـمَّ أجازَ ابنُ رشيقٍ أنْ يُضِيفَ الشاعرُ إِلَى الفضَائلِ النفسيةِ الفضَائلَ العَرضِيةَ والجسديةَ، ولا سِيَّما أنَّ زُهيرًا الذي اتخذه قُدامَـةُ مِعيارًا للمدحِ قد مَدَحَ بالآباءِ كما مدحَ بالفضَائلِ الجسديةِ، ومِنْ ذَلِكَ قَولُه:

وَفِـيهِمْ مَـقَامَـاتٌ حِـسَانٌ وُجُـوهُـهَا وَأَنْـدِيَـةٌ يَـنْـتَـابُـهَا القَـوْلُ وَالْفِـعْلُ

وَمَـا يَـكُ مِـنْ خَـيْـرٍ أَتَـوْهُ فَـإِنَّـمَا تَـوَارَثَـهُ آبَـاءُ آبَـائِـهِـمْ قَـبْـلُ

وَهَلْ يُـنْبِتُ الْـخَـطِّـيَّ إِلَّا وَشِيجُـهُ[1] وَتُـغْـرَسُ إِلَّا فِـي مَنَابِـتِهَا النَّـخْـلُ؟[2]

---

(1) الخطيُّ: الرمح، والوشيج: شجر الرماح.

(2) انظر: أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني: العمدَة فِـي صناعة الشعر ونقدِهِ، حققه وعلق عليه د. النبوي عبد الواحد شعلان، مكتبة الخانجي بالقاهرة، الطبعة الأولى 1420هـ، 2000م، 2/ 805.

وَمهمَا يَـكنْ مِنْ أمرٍ فإنَّ صفاتِ المدحِ فِـي الشعر العباسيِّ لَـمْ تَعُـدْ عَامةً كهذِي الصفاتِ، وإنَّـما **تَـحولَتْ مِنَ العموميةِ إلَـى الخصوصيةِ** استجابةً لتطورَاتِ العصرِ، وتَنوُّعِ ممدوحِيهِ، كَما سَلفَتِ الإشَارةُ، ولَـم يَقتصِرِ التطورُ والتجديدُ علَى معانِـي المدْحِ وموضوعَاتِهِ، وإنَّما امْتدَّ إلَى الشكلِ الفنيِّ والبناءِ الموسيقيِّ، وقَد تَجدُرُ الإشارةُ إلَى أنَّ تَطورَ قَصيدةِ المدْحِ فِـي العصـرِ العباسيِّ لَـمْ يَقتصِـرْ – كَما أشَـرْتُ آنِـفًا– علَى الاستجابةِ لمستجدَّاتِ العصْـرِ السياسيةِ والفِكريةِ، وَإنَّما كانَ إرضَاءً لرغبةِ الممدوحِ فِـي ذيوعِ شِعرِ المدْحِ والمعَانِي المتضمنَـةِ فيهِ عَبْـرَ الآلةِ الإعلاميةِ المتاحَةِ آنذاكَ (الشِّعْـرِ).

وقَـدْ رَأى **د.شَوقي ضِيف** أنَّ مَـدْحَ الشعرَاءِ للخَليفَةِ العباسيِّ بالصفاتِ الأخلاقيةِ المثاليةِ – وَإنْ لَـمْ يَـتَّسِمْ بِـهَا – ليسَ مَدحًا لشخصِهِ، وإنما بوصفِهِ خَليفةَ المسلمينَ وموضعَ آمالِـهِم، وكأنّهم يُريدونَ أن يَرفَعوا نُصْبَ عَينيهِ الشعارَاتِ التي تطلبُها الأمَّـةُ فِـي خَلِيفتِهَا ورَاعِيها، لعلَّه يَثوبُ إلَـى طَرِيقِ الرشَادِ، ويتَحلَّى بصفاتِ الحاكمِ المسلِمِ. لكنَّ ذلكَ وَإنِ اتفَـقَ معَ بعضِ الشعراءِ كَأبِـي العتاهيةِ الذينَ ما تَركُوا فرصةً لنصْحِ الخليفَةِ وتَذكيرِهِ، لَا يُمكنُ أنْ يُعمَّمَ عَلَى كلِّ الشعرَاءِ الذينَ نَظمُوا القصَائِـدَ المدحيةَ كبشَّارِ بن بُردٍ.

وَمِنْ نماذجِ تَخصُّصِ المعانِـي فِـي قصيدةِ المدحِ اختلافُ مَدْحِ الخليفةِ عَنِ الوزيرِ والكاتِبِ؛ وَمِنْ ثَـمَّ كانَ الممدوحُ سببًا أسَاسيًا فِـي تطورِ قَصيدةِ المدح؛ **فالخليفة** يُمدَحُ بأنه المدافِعُ عن الـدِّينِ، المحافِظُ عَلَى الأمةِ، فِـي غيرِ تَوانٍ أو تقصيرٍ، عَلِمَ أنَّ الدنيَا فانيةٌ ومفارَقَـةٌ فانصـرَفَ عنها وَلَـمْ يتعلقْ بملاذهَا، ومِن شواهِدِ ذلكَ مَدح أبي العتاهيةِ لهارونَ الرشيدِ:

وَرَاعٍ يُـرَاعِي اللهَ فِـي حِـفْـظِ أُمَّـةٍ يُـدَافِعُ عَنْـهَا الشَّـرَّ غَـيْـرَ رَقُـودِ
تَـجَافَى عَـنِ الـدُّنْـيَا وَأَيْـقَنَ أَنَّـهَـا مُـفَارَقَـةٌ لَـيْسَتْ بِـدَارِ خُلُـودِ

ومنها قول علـيّ بنِ الْـجهْمِ فِـي الخليفةِ المتوكلِ:

لَـهُ الْـمِنَّـةُ الْعُـظْـمَى عَلَـى كُـلِّ مُـسْلِمٍ وَطَاعَـتُـهُ فَـرْضٌ مِـنَ اللهِ مُـنْـزَلُ

فَيصوِّرُ الشاعرُ – فِـي مبالغةٍ معهُودةٍ فِـي مَدحِهِ الخلفاءَ – فَضْلَـهُ علَى المسلمينَ كلِّهم؛ فهوَ الهادِي المهدِيّ الذِي تَـجِبُ علَـى كل المسلمينَ طَاعَتُه، كقولِ أبِـي العتاهيةِ فِـي المهدِيِّ:

أَتَـتْـهُ الْـخِـلَافَـةُ مُـنْـقَـادَةً إِلَـيْـهِ تُـجَـرِّرُ أَذْيَـالَـهَا

فَلَمْ تَكُ تَصْلُحُ إِلَّا لَهُ وَلَمْ يَكُ يَصْلُحُ إِلَّا لَهَا
وَلَوْ رَامَهَا أَحَدٌ غَيْرُهُ لَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا

وَعندَمَا سَمِعَ **بَشارٌ** هذهِ الأبيَاتَ، وكانَ حَاضِرًا المجلسَ قالَ لِمَنْ حولَه: **انظُرُوا إِلَى أَمِيرِ المؤمنينَ هلْ طَارَ عن كُرسيِّهِ!**

وَمن نماذجِ مَدحِ **الوزيرِ** ما نَظمه **سَلْمُ الخاسِرُ** فِي مَدحِ **يحيَى البرمَكيِّ** وزيرِ الرشيدِ، فهُوَ عَوْنُ الخليفةِ فِي الدفاعِ عَنِ الدِّينِ والغيرةِ على الإسلامِ، وعدمِ الانشغالِ بمتاعِ الدنيَا ومظاهر الترَفِ مِن حولهِ عَن الاهتمام بشؤونِ الدينِ والدنيا معًا:

بَقَاءُ الدِّينِ وَالدُّنْيَا جَمِيعًا إِذَا بَقِيَ الْخَلِيفَةُ وَالْوَزِيرُ
يَغَارُ عَلَى حِمَى الإِسْلَامِ يَحْيَى إِذَا مَا ضَيَّعَ الْحَزِمُ الْغَيُورُ
وَمَا أَلْهَاكَ عَمَّا أَنْتَ فِيهِ نَعِيمُ الْمُلْكِ وَالْوَطِئُ الوثِيرُ[1]

أمَّا **الكَاتِبُ** فيُمدَحُ بالتفنن فِي الكتابةِ، وحسنِ التعبيرِ وجزالةِ اللفظِ وبلاغةِ العبارَةِ وتَنميقِهَا، وتنوعِ الأسلوبِ. ومِنْ ذلكَ مدحُ البحتريِّ لمحمد بنِ عبد الملك الزياتِ:

لَتَفَنَّنْتَ فِي الْكِتَابَةِ حَتَّى عَطَّلَ النَّاسُ فَنَّ "عَبْدِ الْحَمِيدِ"
فِي نِظَامٍ مِنَ الْبَلاغَةِ مَا م شَكَّ امْرُؤٌ أَنَّهُ نِظَامُ فَرِيدِ
وَبَدِيعٍ كَأَنَّهُ الزَّهْرُ الضَّا حِكُ فِي رَوْنَقِ الرَّبِيعِ الْجَدِيدِ
مُشْرِقٌ فِي جَوَانِبِ السَّمْعِ مَا يُخْـ ـلِقُهُ عَوْدُه عَلَى الْمُسْتَعِيدِ
حُجَجٌ تُخْرِسُ الْأَلَدَّ بِأَلْفَا ظٍ فُرَادَى كَالْجَوْهَرِ الْمَعْدُودِ
وَمَعَانٍ لَوْ فَصَّلَتْهَا الْقَوَافِي هَجَّنَتْ شِعْرَ "جَرْوَلٍ" و"لَبِيدِ"

وَنُلاحِظُ – مِمَّا سبقَ – أنَّ مَدحَ الخلفاءِ والوزراءِ خاصةً قَد غَلبتْ عليهِ المعانِي الإسلاميةُ، حيثُ ألحَّ الشعراءُ علَى وصفِ الخلفاءِ والوزراءِ بمَا يُزينُهم فِي أعين رعيتِهم، وَقَد مثَّلَ ذلكَ **الإلحاحُ على المعانِي الإسلاميةِ** مَلمحًا جديدًا فِي المدحَةِ العباسية لَمْ يُعهَدْ مِنْ قَبلُ، وكانَ لِلخلفَاءِ أنفسِهم دَورٌ فِي

(1) أَلْهَاكَ: شَغلكَ، وَالْوَطِئُ: مِنْ كلِّ شيءٍ ما سَهُلَ ولَانَ، **الوثِيرُ:** أي الفراش المعد المهيأ الموطأ.

توجيهِ الشعراءِ إلى ذلكَ المنحَى الجديدِ، فقد رَوَى **ابنُ المعتز** فِي طبقاتِهِ: أنَّ الشعراءَ اجتمعُوا يومًا ببابِ الرشيدِ فسَألُوا الإذنَ فلمْ يَأذَنْ لَهم، ثم بَدَا لَه فقالَ للحاجِبِ: اخْرُجْ إِلَيهم فَقُلْ لَهُمْ: مَنِ اقتَدَرَ أنْ يَمْدَحَنا بِالدينِ والدنيَا فِي ألفاظٍ قَليلةٍ فليدخُلْ، فبادر ابنُ أبي السِّعْلاء (أنثى الغولِ) فاستأذنَ فقالَ للحاجِبِ: أدخِلْهُ! فأَدخَلَهُ. فقال الرشيدُ: أنشِدْنِي قَولكَ:

أَغَيْثًا تَحْمِلُ النَّاقَةُ أَمْ تَحْمِلُ هَارُونَا؟

فقال: أُنشِدُكَ ما اخترتَهُ وشرطْتَهُ اليومَ. فقال: بل أنشدني الأبياتَ! فأنشده:

أَغَيْثًا تَحْمِلُ النَّاقَةُ أَمْ تَحْمِلُ هَارُونَا؟
أَمِ الشَّمْسَ، أَمِ الْبَدْرَ، أَمِ الدُّنْيَا، أَمِ الدِّينَا؟
أَلَا لَا، بَلْ أَرَى كُلَّ الذِي عَدَّدْتُ مَقْرُونًا
عَلَى مَفْرِقِ هَارُونَ فَدَاهُ الْآدَمِيُّونَا

فَهَذا الخَبرُ يوضحُ لنَا أنَّ الخليفَةَ نفسَه حَدَّدَ لمن شَاءَ مِنَ الشعراءِ أنْ يَمدحَه الأُفُقَ المعنويَّ الذي يُحَلّقُ فيهِ، حيثُ تقترنُ رعايته للشؤونِ الدينية بحفاظهِ علَى عُرَى الدينِ، ومن قبلُ رَفضَ الخليفةُ المنصورُ أَنْ يُمدَحَ على النهجِ القديمِ، بأن يُشَبَّه بالأسَدِ أوِ البَحْرِ أو مَا أَشبهَ ذَلِكَ[1].

وبذلكَ نَستطيع أن نفهمَ دُخولَ صفاتٍ جديدةٍ، وكلماتٍ مستوحَاةٍ مِنْ مفرداتِ المعجمِ الإسلاميِّ كالتقوَى والورَعِ والزهدِ والعدالةِ، والصدْقِ والأمانةِ، والحلالِ والحرامِ، وغيرِهَا، كقولِ **مَروانَ بنَ أَبِي حَفصةَ** يمدحُ المهديَّ فِي قصيدةٍ يقولُ فِي مَطلعِهَا:

أَحْيَا أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ مُحَمَّدٌ سُنَنَ النَّبِيِّ: حَرَامَهَا وَحَلَالَهَا

وقول **منصور النَّمِرِيِّ** مخاطبًا الرشيدَ ومؤكدًا أحقيةَ بني العباسِ فِي الخلافَةِ، متخذًا مِنَ قواعدِ الشريعةِ فِي تَقديمِ العَمِّ عَلَى ابْنِ العَمِّ مُسوِّغًا لِنَفْي أحقيةِ بَنِي عَلِيٍّ فِي الخلافة، يقولُ:

يَا بْنَ الأَئِمَّةِ مِنْ بَعْدِ النبِيِّ وَيَا بْـ ـنَ الأَوْصِيَاءِ أَقَرَّ الناسُ أَمْ دَفَعُوا
إِنَّ الخِلَافَةَ كَانَتْ إِرْثَ وَالِدِكُمْ مِنْ دُونِ تَيْمٍ وَعَفْوُ اللهِ مُتَّسِعُ

(1) انظر د. عز الدين إسماعيل: فِي الشعر العباسي الرؤية والفن، ص 340، وطبقات الشعراء لابن المعتز: ص 150.

وَمَـا لِآلِ عَلِيٍّ فِـي إِمَـارَتِـكُمْ حَـقٌّ وَمَـا لَـهُمْ فِـي إِرْثِـكُمْ طَـمَعُ
يَـا أَيُّـهَا النَّاسُ لَا تَـعْـزُبْ عُـقُولُـكُمُ وَلَا تَضُمَّـكُمْ إِلَى أَكْـنَافِـهَا البِـدَعُ
العَـمُّ أَوْلَـى مِـنَ ابْنِ العَـمِّ فَاستَمِعُوا قَـولَ النَّـصِيحِ فَإِنَّ الْـحَـقَّ يُـسْـتَـمَعُ

وقَـدْ يَعدِلُ الشعرَاءُ عنِ المدح بالصفَاتِ إلى **المدْحِ بآثارِ الممدوحِ** وإنجازاتِـهِ الحضَاريةِ، فَيكونُ المدحُ أكثرَ تأثيرًا فِـي النفسِ، لِابْتعادِهِ عَنِ المباشرَةِ، وممنْ فعلَ ذلكَ أبو تمام فِـي إحدَى مدائحهِ المعتصمَ، حيث يَستهلُّها بقولِـهِ:

رَقَّـتْ حَـواشِـي الدَّهْـرِ فَـهْيَ تَـمَـرْمَـرُ وَغَـدَا الثَّـرَى فِـي حَلْيِـهِ يَـتَـكَسَّـرُ
نَـزلَـتْ مُـقَدِّمَـةُ الـمَـصِيفِ حَـمِـيدةً وَيَـدُ الشِّتاءِ جَـدِيدَةٌ لَا تُـكْـفَـرُ
مَـطَـرٌ يَـذُوبُ الصَّحْوُ منهُ وبَعْـدَه صَحْـوٌ يَـكَادُ مِـنَ الغَضَارة يُـمْطِـرُ
أَرَبِيعَـنَا فِـي تِسْـعَ عَشْـرَةَ حِجَّـةً حَـقًّا لَـهِـنَّـكَ لَلـرَّبِـيعُ الأَزْهَـرُ
مَـا كَانَـتِ الْأَيَّـامُ تُسْلَـبُ بَـهْجَـةً لَـوْ أَنَّ حُـسْنَ الـرَّوْضِ كَانَ يُـعَـمَّـرُ
إِنَّ الـخَلِيفَـةَ حِـينَ يُـظلِـمُ حَـادِثٌ عَـيْـنُ الْـهُـدَى وَلَـهُ الْـخِلَافَـةُ مَـحْجَـرُ

واتَّـخذَ **البحتري** كذلكَ بِـرْكةَ **المتوكل** تُـكأةً إلى مَديحِ المتوكِّلِ، فجعلَ يتغنَّى بأوصافِهَا، ويرسمُها فِـي لوحةٍ رائعةٍ، أَهَّـلَـتْهُ ليكونَ من أعظم شعراءِ الوصفِ فِـي عصره، يقول البحتريُّ:

يَـا مَـنْ رَأَى البِـرْكَـةَ الـحَسْنَاءَ رُؤيَـتَها والآنِـسَاتِ، إِذَا لَاحَـتْ مَـغَانِـيهَا
بِحَسْبِـهَا أَنَّـهَا، فِـي فَـضْلِ رُتْـبَـتِهَا تُـعَـدُّ وَاحِـدَةً والبَحْـرُ ثَـانِـيهَا
مَـا بَـالُ دِجْلَـةَ كَالغَـيْـرَى تُـنَافِـسُها فِـي الْـحُـسْنِ طَـوْراً وأَطْـوَاراً تُـبَاهِيهَا
أَمَـا رَأَتْ كَالِـىءَ الإِسْلامِ يَـكْلؤُهَـا مِـنْ أَنْ تُـعَابَ، وَبَـانِـي الْـمَجْـدِ يَـبْنِـيهَا
تَـغْـنَى بَـسَاتِينُـهَا القُصْوَى بِـرُؤيَـتِهَا عَـنِ السّحَائِبِ، مُـنْـحَـلًّا عَـزَالِـيهَا[1]
كَأَنَّـهَا، حِـينَ لَـجَّتْ فِـي تَـدَفّـقِـهَا يَـدُ الْـخَلِيفَـةِ لَـمّا سَـالَ وَادِيـهَا
وَزَادَهَـا رُتْـبَـةً مِـنْ بَـعْـدِ رُتْـبَـتِهَا أَنَّ اسْمَـهُ حِـيْنَ يُـدْعَى مِـنْ أَسَامِـيهَا

(1) عزاليها: مفردها عزلاء، ومعناها مصب الماء من القربة أو الراوية.

إِذَا مَسَاعِي أَمِيرِ الْمُؤمِنِينَ بَدَتْ للوَاصِفِينَ، فَلَا وَصْفٌ يُدَانِيهَا

وَمِنْ مظاهرِ ازدهارِ شعرِ المدحِ وانتشاره فِي العصرِ العباسيِّ مَا يُمكنُ تَسميتُه **بِـ (الثنائياتِ المدحيةِ)**؛ بحيثُ تَرَى شَاعرًا بعينِه قَدِ ارتبطَ بممدوحٍ دونَ غيرِه، حتى كانَ هذَا الاقترانُ أشبهَ بالثنائياتِ المتلازمةِ التِي إذا ذُكِرَ أحدُها استُدْعِيَ الآخَرُ إلَى الذهنِ، فسمِعْنَا عنِ المتنبِّي وسيفِ الدولةِ، وأبِي تمامٍ والمعتصِمِ؛ ومِنْ شواهِدِ الأولِ: قَولُ المتنبِّي فِي إحدَى سَيفيَّاتِهِ[1]، يمدَح سيفَ الدولةِ، ويُهنِّئُه بعيدِ الأضحَى سنةَ اثنتينِ وأربعينَ وثَلاثمائَةٍ، أنشدَه إياهَا فِي ميدانِهِ بحَلب، وهُمَا علَى فَرَسَيهِما:

لِكُلِّ امْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا وَعَادَةُ سَيْفِ الدَّوْلَةِ الطَّعْنُ فِي العِدَى
وَأنْ يُكْذِبَ الإرْجَافَ عَنْهُ بِضِدّهِ وَيُمْسِي بِمَا تَنْوِي أَعَادِيهِ أَسْعَدَا
هُوَ البَحْرُ غُصْ فِيهِ إِذَا كَانَ سَاكِنًا عَلَى الدُّرِّ وَاحْذَرْهُ إِذَا كَانَ مُزْبِدَا
فَإِنِّي رَأيتُ البَحْرَ يَعثُرُ بِالفَتَى وَهَذَا الذِي يَأْتِي الفَتَى مُتَعَمِّدَا
هَنِيئًا لكَ العِيدُ الذِي أَنْتَ عِيدُهُ وَعِيدٌ لِمَنْ سَمَّى وَضَحَّى وَعَيَّدَا
وَمَنْ يَجعَلِ الضِّرغَامَ بَازًا لِصَيدِهِ تَصَيَّدَهُ الضِّرْغَامُ فِيمَا تَصَيَّدَا
رَأيتُكَ مَحْضَ الحِلْمِ فِي مَحْضِ قُدْرَةٍ وَلَوْ شِئتَ كَانَ الحِلمُ مِنكَ المُهنَّدَا
وَمَا قَتَلَ الأَحْرَارَ كَالْعَفْوِ عَنهُمُ وَمَنْ لَكَ بِالْحُرِّ الذِي يَحفَظُ اليَدَا
إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الكَرِيمَ مَلَكْتَهُ وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا
وَوَضْعُ النَّدَى[2] فِي موْضِعِ السّيفِ بالعُلَا مُضِرٌّ كَوَضْعِ السَّيْفِ فِي مَوْضِعِ النَّدَى
وَمَا الدّهْرُ إِلَّا مِنْ رُواةِ قَصائِدِي إِذَا قُلْتُ شِعْرًا أَصْبَحَ الدَّهْرُ مُنشِدَا
وَدَعْ كُلَّ صَوْتٍ غَيرَ صَوْتِي فَإِنّنِي أَنَا الطّائِرُ المَحْكِيُّ وَالآخَرُ الصَّدَى

---

(1) **السيفيات:** هي القصائد التي قالها المتنبي فِي سيف الدولة الحمداني، كما تسمى قصائده فِي كافور الإخشيدي **بالكافوريات.**

(2) الندى: الجود والعطاء والكرم.

ومن شواهد الثاني مَدح أبِـي تمامٍ للمعتصمِ بقولِهِ:

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِـنَ الكُـتُبِ فِـي حَـدّهِ الْـحَـدُّ بَيْـنَ الجِـدِّ واللَّـعِبِ
بِيـضُ الصَّفَائِـحِ لَا سُودُ الصَّحَائِـفِ فِـي مُـتُونِـهِنَّ جَـلَاءُ الشَّكِّ والـرِّيَـبِ
والعِلْـمُ فِـي شُهُبِ الأَرْمَـاحِ لاَمِعَـةً بَـيْـنَ الـخَمِيسَيْنِ لا فِـي السَّبْعَـةِ الشُّـهُبِ
فَـتْـحُ الفُـتُوحِ تَـعَـالَـى أَنْ يُـحيطَ بِـهِ نَـظْـمٌ مِـنَ الشعْرِ أَوْ نَـثْـرٌ مِـنَ الـخُـطَبِ
تَـدْبيرُ مُـعْـتَصِمٍ بِـالله مُـنْـتَـقِـمٍ لله مُـرْتَـقِبٍ فِـي الله مُـرْتَـغِبِ
خَلِيفَـةَ الله جَـازَى الله سَعْـيَكَ عَـنْ جُـرْثُـومَـةِ الـدِّيْـنِ والإِسْلاَمِ والـحَـسَبِ
بَـصُـرْتَ بِالـرَّاحَـةِ الْـكُـبْـرَى فَـلَـمْ تَـرَهَا تُـنَالُ إِلَّا عَـلَى جِـسْرٍ مِـنَ الـتَّـعَبِ

وَمِن ملامحِ التجديدِ في قصيدةِ المدحِ العباسية ما يمكن تسميتُه **(الـموقفَ الإنسانِـيَّ)**؛ حيثُ تَـحررَتِ المدحةُ العباسيةُ مِنْ آثارِ العصبيةِ القبليةِ أو القوميةِ، لتحلقَ فِـي أفقٍ إنسانـيٍّ رَحيبٍ، مثلَما فعل **البحتريُّ** حين وقفَ أمَامَ إيوانِ كِسرَى المتهدمِ ليبكيَه، وليمدَحَ مِنْ خلالِهِ حضَارةَ الفرسِ الغابرَةِ، يقولُ البحتريُّ[1]:

صُنْتُ نَـفْسِـي عَـمّا يُـدَنّسُ نَـفْسِـي وَتَـرَفَّـعْتُ عَـنْ جَـدَا كُـلِّ جِـبْسِ[2]
وَتَـمَاسَكْتُ حِـينَ زَعْـزَعَنِـي الـدَّهْـ ـرُ الْـتِمَاسًا مِـنْـهُ لِـتَـعْسِـي، وَنَـكْـسِ[3]
حَـضَـرَتْ رَحْـلِـيَ الْـهُمُومُ فَـوَجَّـهْـ ـتُ إِلَـى أَبْـيَـضِ الْـمَـدَائِـنِ عَـنْسِـي[4]
لَـوْ تَـرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ اللّـيَالِـي جَـعَـلَتْ فِـيهِ مَـأْتَـمًا، بَـعْـدَ عُـرْسِ
وَهْـوَ يُـنْبِيكَ عَـنْ عَجَائِـبِ قَـوْمٍ لَا يُـشَابُ الـبَيَانُ فِـيهِمْ بِلَـبْسِ
وَكَـأَنَّ الإِيـوَانَ مِـنْ عَجَبِ الصّنْـ ـعَـةِ جَـوْبٌ فِـي جَـنْبِ أَرْعَـنَ جِـلْسِ

---

(1) انظر د. علي نجيب عطوي: الشعر فِـي العصر العباسي، ص 61.

(2) جدا: عطاء، الجبس: اللئيم، والجبان والدنيء.

(3) نكس: انقلاب الرجل على رأسه، أو سقوطه كلما نهض.

(4) حضرتْ: نزلت وطرأت، المدائن: عاصمة الفرس، عنسِي: ناقتي القوية.

لَـمْ يَـعِـبْـهُ أنْ بُـزَّ مِنْ بُـسُطِ الدِّيـ ـباجِ وَاستُلّ مِنْ سُـتُـورِ الـدِّمَـقْسِ
لَيسَ يُـدْرَى: أَصُـنْـعُ إِنْـسٍ لِـجِـنٍّ سَـكَـنوهُ أَمْ صُـنْعُ جِـنٍّ لِإِنْـسِ
ذَاكَ عِنْـدِي وَلَـيسَتِ الـدَّارُ دَارِي بِاقْـتِـرَابٍ مِنْـهَا، وَلَا الْـجِـنْسُ جِنْسِـي
غَـيرَ نُـعْمَى لأَهْـلِهَا عِـنْـدَ أَهْـلِـي غَـرَسُوا مِـنْ زَكَـائِـهَا خَـيرَ غَـرْسِ
أَيَّـدُوا مُـلْـكَـنَا، وَشَـدُّوا قُـوَاهُ بِـكُـمَاةٍ، تَـحْـتَ السَّـنَـوَّرِ، حُـمْسِ

وإِنْ كانَ ما سبقَ تَطورًا فِـي معانِـي قصيدةِ المدحِ وموضوعاتها، فإنَّ هناكَ تَطورًا آخرَ أصابَ البناءَ الفنيَّ لَـها؛ مِنْ ذلكَ ما أصابَ مقدمةَ القصيدة التي لَـمْ تَعدْ وَصفًا لأطلالِ المحبوبةِ والرحلةِ والراحلةِ، وإنما تحولتْ فِـي أحيانٍ كثيرةٍ منْ وَصفِ الصحراءِ ومسَالكِها إلَـى وصفِ الرياضِ والبساتينِ العامرةِ ومناظِرِهَا البهيجةِ فِـي الربيع، كما وصفُوا الأنهارَ، ومَا فِيها من سفنٍ بدلًا مِنْ وصفِ رحلةِ البعير فِـي الصحراءِ. ومِنْ ذلكَ ما استهلهُ أبو تمام فِـي مَدحِ المعتصمِ عندمَا تحدثَ عنِ الربيعِ وآثارِهِ رامِـزًا بهِ إلَـى الخصبِ فِـي عصـرِ المعتصِمِ:

رَقَّـتْ حَـواشِـي الـدَّهْـرِ فَـهْيَ تَـمَـرْمَـرُ وَغَـدَا الثَّـرَى فِـي حَلْيِـهِ يَـتَـكَسَّـرُ

ومن الأخرَى قول بشار بن برد فِـي مدح المهدي:

وَعَـذْرَاءَ لَا تَـجْـرِي بِلَـحْمٍ وَلَا دَمٍ بَـعِيدَةِ شَكْـوَى الأَيْـنِ مُلْجَمَـةِ الـدَّبْـرِ
إِذَا ظَعَـنَتْ فِيهَا الفُـلُولُ تَـشَخَّصَتْ بِفُـرْسَانِـهَا لَا فِـي دُعُـوثٍ وَلَا وَعْرِ
وإِنْ قَصَدَتْ زَلَّـتْ عَلَى مُـتَـنَصِّبٍ ذَلِـيلِ القُـوَى لَا شَـيْءَ يَـفْـرِي كَـمَا تَـفْرِي
تُـلَاعِبُ نِـينَانَ البُـحُورِ وَرُبَّـمَـا رَأَيْـتَ نُـفُوسَ القَـوْمِ مِـنْ جَـرْيِـهَا تَـجْرِي

علَـى أنَّ قصائدَ أخرَى قَـدِ احتفظتْ بالمقدمةِ الطللية، فقدْ روَى الصولِـيُّ فِـي أخبارِ البحتريِّ، قالَ: "حَدثنِي يحيى بنُ البحتريِّ قالَ: قالَ أبِـي: أولُ مَـا مدحتُ بِـهِ الفتحَ بنَ خاقانَ:

هَـبِ الـدّارَ رَدّتْ رَجْعَ مَـا أنتَ قَـائِـلُـهْ وَأَبْـدَى الْـجَـوَابَ الـرَّبْـعُ عَـمَّا تُسائِلُـهْ

.. وَكانَ أولُ مَا اهتزَّ لَـه قَولِـي:

وَقَـدْ قُـلْتُ للمُعْلِـي إِلَـى المَجْـدِ طَـرْفَـهُ: دَعِ المَـجْدَ، فالفَتحُ بنُ خَاقَانَ شَاغِـلُـهْ

فلما فَرغتُ سَـرَّهُ مَا سَمِعَ، وأمَـرَ لِـي بخمسةِ آلافِ دِرهمٍ".

فَالبحتريُّ هنَا يتقدَّم بأُولَـى تجاربهِ معَ الفتحِ بنِ خاقانَ بقصيدةٍ تبدأُ بمقدمةٍ تقليديةٍ تجديديةٍ فِـي آنٍ معًا.. فَبدلًا مِنْ أنْ يقولَ علَى عادةِ القدماء: "دَعِ الأطلالَ"، وامدَحْ فلانًا قَـالَ:

وَقَـدْ قُـلْتُ للمُعْلِـي إِلَى المَجدِ طَـرْفَـهُ: دَعِ المَجْدَ، فَالفَتحُ بنُ خَاقَانَ شَاغِلُـهْ

والمقدمةُ فِـي بدايتِهَا بدويةٌ، إذْ صَوَّرَ فيهَا الديارَ ورَدَّها الجَوابِ، وتناولَ ألفاظَ القدمَاءِ التي طرقُوهَا فِـي مقدماتِهم مِنْ ذكرِ الدارِ والربع والتحيةِ والردِّ، والدمعِ والدِّمَنِ، وغيرِهَا مما نَجِدُهُ فِـي مقدماتِ القدماءِ، وهيَ مقدمةٌ شأنُـها شأنُ كلِّ مقدماتِ البحتري لا تَـخلصُ لأمرٍ واحدٍ، بلْ تَـجمعُ إلى جانبِ الطللِ لَـمْحًا سريعًا إلى الطيفِ وَالغَـزَلِ[1]، يقول البحتريُّ:

هَـبِ الدّارَ رَدّتْ رَجْعَ مَا أنتَ قائِلُـهْ وأبْـدَى الْـجَـوَابَ الـرَّبْـعُ عَـمّا تُسائِلُـهْ
أَفِـي ذاكَ بُـرْءٌ مِنْ جَوًى أَلْـهَبَ الْـحَشَا تَـوَقُّـدُهُ، واستَغْـزَرَ الدّمْعَ جَائِلُـهْ
هُـوَ الـدّمْعُ مَـوْقُـوفًا عَلَى كُـلِّ دِمْـنَـةٍ تُـعَـرِّجُ فِيهَا، أوْ خَلِيطٍ تُـزَايِلُـهْ
تَـرَادَفَـهُـمْ خَفْـضُ الـزَّمَـانِ وَلِينُـهُ وَجَـادَهُـمُ طَـلُّ الـرَّبيـعِ وَوَابِـلُـهْ
وإنْ لَـمْ يَـكُنْ فِـي عَاجِلِ الدّهْـرِ مِنهُمُ نَـوَالٌ، وَغَـيْثٌ مِنْ زَمَـانِـكَ آجِلُـهْ
مَـضَى العَـامُ بِالْـهِـجْـرَانِ مِنهُمْ وَبِالنَّـوَى فَـهَـلْ مُـقبِلٌ بِالقُـرْبِ والْـوَصْلِ قَابِلُـهْ
أُرَجِّمُ فِـي لَـيْـلَـى الظّـنُونَ، وأَرْتَـجِي أَوَاخِـرَ حُـبٍّ أخلَـفَـتْنِي أوَائِـلُـهْ
وَلَـيْـلَـةَ هَـوَّمْـنَا علَـى العِيسِ، أرْسَلَتْ بِطَـيْفِ خَـيَالٍ يُـشْبِهُ الـحَـقَّ بَاطِـلُـهْ

هذَا بالإضافةِ إلى أنَّ قصيدةَ المدح صارتْ **سِجلًا للأحداثِ التاريخية والمعاركِ** التي يخوضُها الخلفاءُ والقُوادُ والأمراءُ، حتَّى إنهَا قامتْ بما تَقومُ بهِ الصحافةُ الحديثةُ مِنْ تسجيلٍ للأحداثِ والأعمالِ التِي يُنجِـزُهَا الخلفاءُ، وقدْ أدَّى الامتدَادُ الزمانيُّ للدولةِ العباسيةِ إِلَى كثرةِ أحداثِها، ووقائعِها، ومِنْ ثَمَّ كانتِ المدائحُ سِجلًّا يوثِّـقُ تلكَ الأحدَاثَ، وقدْ تَتطرقُ المدحةُ إِلَى بعض التفاصيلِ التي تُغفِلُها كتبُ التأريخِ،

([1]) انظر د. عبد الله التطاوي: قصيدة المدح العباسية بين الاحتراف والإمارة، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع،، القاهرة 2000م، ص 118، 119.

ولا عَجبَ بعدَئـذٍ أنْ تَـرى مُؤرِّخًا كالطبريِّ يَتخذُ القصائِدَ مصْدرًا من مصادرِ تأريخِهِ، وكانَ مِنْ أوائلِ مَن فعلَ ذَلكَ مِنَ الشعراءِ **السيدُ الحِميريُّ**، فإنهُ حوَّلَ أخبارَ عَلـيِّ بنِ أبي طالبٍ إلَى مدائحَ بديعةٍ، وفِـي ترجمتِهِ بكتابِ الأغانِي لأبِي الفرَجِ الأصفهانيّ مِنْ ذلكَ طَرائفُ كثيرةٌ[1]. ومِنْ ذلكَ – أيضًا – تَغنِّي أَبِي تمامٍ بانتصارِ المعتصِمِ وفَتحِ عموريةَ فِـي بائيتِهِ المشهورَةِ، وَقَد أشـرْنَا إليهَا مِنْ قَبلُ، وشواهدُ تسجيلِ أعمالِ الخلفاءِ وإنجازاتِـهم وَمَا حَدَثَ فِي خلافتِهم عَديدةٌ، ولعلَّ المتوكلَ خيـرُ مثالٍ عليهَا؛ فجميعُ أعمالِهِ مُثبتَـةٌ أو مُسجَّلَـةٌ فِـي دَواوينِ الشعراءِ، مِنهَا عقدُه البيعةَ لبنيهِ الثلاثةِ المنتصِـرِ والمعتـزِّ والمؤيَّـدِ، وأمرُه أهلَ الذمةِ بارتداءِ ثيابٍ خاصةٍ بهم، فضلاً عنْ بناءِ القصورِ وتَشييدِها الذِي كثُـرَ فِي عهدِهِ.

ومما تَميزتْ بِـهِ المدحةُ العباسيةُ كذلكَ **اتكاؤُهَا علَى الحِكمَةِ؛** بحيثُ تَـجِدُ الحِكَـمَ مبثوثةً فِـي تضاعيفِ كثيرٍ مِنَ المدائحِ العباسيةِ، ولئِنْ سُبِقَ شعرَاءُ بَنِي العباسِ إلى توظيفِ الحِكمةِ، فإنَّ الحكمةَ فِـي شِعرِ الجاهليينَ والأُمويينَ كَانتْ تَـدورُ – غَالبًا – حولَ الموتِ والحياةِ وشَقاءِ الإنسانِ وَمَا يُعانيهِ مِنْ مقارعَةِ تصاريفِ الحياةِ القاسيَةِ. أمَّـا الحِكمةُ فِـي الشعرِ العباسيِّ فقدْ تناولَتِ النفسَ البشريةَ ومَا تَنطوِي عليهِ مِن خيـرٍ أو شَـرٍّ، كما تَضمنتْ تأملاتٍ فِـي الحياةِ والواقعِ المعِيشِ هيأتْها لتقديمِ عصارَةِ التجْـرِبَـةِ الإنسانيةِ[2]، ناهيكَ بأنَّ الحكمةَ العباسيةَ قد رَفدَتْها علومُ العصرِ ومعارفُه الكثيرةُ والمتنوعةُ، فصبغتْها بأصباغٍ فلسفيةٍ ومنطقيةٍ، كَمَا أفادتْ مِنْ حِكَمِ الأُمَمِ الأخرَى وأمثالِـهَا، ومما يدلُّ على ذلكَ ما رُوِيَ عنِ الشاعرِ العربي **العتَّابِـيّ**، حيثُ كانَ يَعكفُ علَى قراءةِ الكُتبِ الفارسيةِ، ورَآه شَخصٌ مَا يَنسَخُ بعضَ الصحفِ الفارسيةِ، فسألَه مُتعجبًا: لـمَ تكتبُ كُتبَ العجَمِ؟!، فأجابَـهُ مُنكِرًا سؤالَه: وهَلِ المعانِـي والبلاغةُ إلا فِـي كُـتُبِ العجَمِ؟! اللغةُ لَـنَا والمعانِـي لَـهم[3].

ومِمَّـنْ عُـرِفَ بإكثارِه مِنَ الحِكَمِ فِـي مدائحه **أَبُـو تمام**، نحو قولِـهِ:

وَإِذَا أَرَادَ الله نَـشْـرَ فَـضِيلَـةٍ طُـوِيَـتْ أَتَـاحَ لَـهَا لِسَانَ حَسُودِ
لَـوْلاَ اشْتِـعَـالُ الـنَّارِ، فِيمَا جَـاوَرَتْ مَـا كَـانَ يُـعْـرَفُ طِـيبُ عَـرْفِ الْـعُودِ

---

(1) انظر د. شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص 161.

(2) انظر د. علي نجيب عطوي: الشعر فِـي العصر العباسي، ص 57.

(3) انظر د. شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص 149.

لَـولَا التخَوفُ للعوَاقِبِ لَـمْ تَـزَلْ لِلْحَاسِـدِ النُّـعْـمَى علَـى الْـمَحْـسُودِ

وَقولِـهِ:

أَعَـاذِلَـتِـي مَـا أَخْـشَنَ اللَّـيْلَ مَـرْكَـبًا وَأَخْشَنَ مِنْـهُ فِـي الْـمُلِـمَّات رَاكِـبُـهْ
ذَرِينِـي وَأَهْـوَالَ الـزَّمَـانِ أُقَـاسِـهَا فَـأَهْـوَالُـهُ العُـظْمَـى تَـلِيهَا رَغَائِـبُـهْ
أَلَـمْ تَعلَمِـي أنَّ الـزِّمَـاعَ عَلَـى السُّـرَى أَخُو النُّـجْـحِ عِنْـدَ الـنَّائِـبَاتِ وَصَاحِبُـهْ
دَعِينِي عَلَى أَخْلاقِـيَ الصُّـمِّ للتِي هِـيَ الوَفْـرُ أو سِربٌ تَـرِنُّ نوادبُـهْ
فَـإِنَّ الْـحُسَامَ الْـهُـنْـدُوانِـيَّ إِنَّـمَا خُشُونَـتُـهُ مَـا لَـمْ تُـفَـلَّـلْ مَـضَارِبُـهْ

هَـذَا، وَلَـمْ تَسْلَمِ المدحةُ العباسيةُ مِنْ مآخِذَ لعلَّ أهـمَّها **طُولُ بعضِ المدائحِ العباسيةِ**، والطولُ مَظنةُ المَلَلِ والسآمةِ، وَلَا سِيَّما إِذَا كانَ الممدُوحُ خليفةً تَشغلهُ أمورُ الدولةِ وإدارتُـها أكثـرَ مما يَشغلُه الاستماعُ إِلَى قصائدِ المدْحِ، ولعلَّ الرشيدَ قَـدْ أَلْـمَحَ إِلَى ذلكَ حينَ اشترطَ علَى الشعراءِ الواقفينَ ببابهِ الإيجازَ، وَعدمِ الإطالةِ، وقدْ نقلْنا ذلكَ عنهُ من قبلُ حينَ قالَ: **"مَـنِ اقتَـدَرَ أَنْ يَمدحَنَا بالـدِّينِ والـدُّنيَا فِـي ألفاظٍ قَليلةٍ فَليدخُلْ"**.

ومما عيبَ علَى بعضِ المدائحِ العباسيةِ **عدمُ مراعاةِ مقامِ الممدُوحِ**، فقدْ عابَ النقادُ علَى البحتريِّ قولَه يَمدحُ الخليفةَ العباسيَّ (المعتزَّ بالله):

لَا الْـعَـذْلُ يَـرْدَعُـهُ، وَلَا التْـ تَـعْنِيفُ عَـنْ كَـرَمٍ يَـصُـدُّهُ

قيلَ: مَنْ ذَا يُعنِّـفُ الخليفةَ علَى الكرمِ أو يَصده؟! هذَا بالهجاءِ أولَى منهُ بالمدحِ.

وقَريبٌ مِنْ ذلكَ استخدامُ ألفاظِ الذمِّ فِـي مقامِ المدحِ، كقولِ أَبِـي تَـمّامٍ:

مَـا زَالَ **يَـهْـذِي** بِالْـمَـكَارِمِ دَائِـبًا حَـتَّى ظَـنَـنَّـا أَنَّـهُ **مَـحْمُومُ**

فكَلمتَا (يَـهذِي) و (محمُوم) لَا تُناسِبَانِ المدحَ، فالهذيانُ: قولُ مَا لا يُعقَل لمرضٍ أو غيـرِه، وهوَ غيـرُ مُـرادٍ هنَا، وإنما المرادُ الحديثُ عن المكارِم، والمحموم: (الذِي يَتكلم بغيـرِ وَعْي)، وهذِي صفةٌ لَا تُناسِبُ المقامَ كذلكَ، ومِثلُه قولُ أَبِـي نُواسٍ:

جَـادَ بِـالْأَمْـوَالِ حَـتَّـى حَـسِـبُوهُ الـنَّاسُ **حُـمْـقًا**

علَى أنَّ أهمَّ مَا يُؤخَذُ علَى القصيدَةِ العباسيةِ هوَ **كَثْرَةُ المبالغَاتِ**، وإنْ كانَ المـدْحُ قرينَ المبالغاتِ، لكنَّ بعضَ الشعراءِ العباسيينَ أسرَفُوا فِـي المبالغَـةِ حتَّى كادُوا يُـؤلِّـهونَ بعضَ ممدوحِيهم، كقولِ أَبِـي نواسٍ فِـي الرشيدِ:

وَأَخَـفْتَ أَهْـلَ الشِّـرْكِ حَـتَّى إِنَّـهُ لَتَخَافُـكَ الـنُّـطَفُ التِـي لَـمْ تُـخْـلَقِ

كَما قالَ أبو نواسٍ شِعـرًا فِـي الأمينِ اتُّـهِمَ فيهِ؛ لأنه قالَ قَولًا عَظيمًا لَا يَقُولُـه مُسلمٌ، عنيتُ قولَه:

تَنَازَعَ الأَحْـمَدَانِ الشَّبَـهَ فَاشْتَـبَـهَا خَلْـقًا وخُلُـقًا كَما قُـدَّ الشِّـرَاكَانِ

اثْـنَانِ لَا فَضْلَ لِلمَعْقُول بَينَـهُما مَـعْـنَاهُـمَا وَاحِـدٌ والعِـدَّةُ اثْـنَانِ

فهوَ يقصدُ بالأحمديْنِ هنَا: النبيَّ محمدًا ﷺ، ومحمدًا الأمينَ، فوحَّدَ بينَهما وسَاواهُـما، وبينَهما بونٌ بعيدٌ.

وقُـلْ مثلَ ذلكَ فِيما قالَه **عَلِـيُّ بنُ الجهْـمِ** فِـي مدح **المتوكلِ**:

وَمَـنْ قَـالَ إِنَّ البَحْـرَ وَالْقَطْـرَ أَشْبَـهَا نَـدَاهُ فَـقَدْ أَثْـنَى عَلَى البَحْـرِ وَالْـقَطْـرِ

وَلَـوْ قُـرِنَتْ بِالْـبَحْرِ سَبْعَـةُ أَبْـحُرٍ لَـمَا بَلَـغَتْ جَـدْوَى أَنَـامِلِـهِ[1] الْعَـشْـرِ

فهوَ هنَا يُشبهُ عطاءَ الممدوحِ بكلماتِ اللهِ التِي لا تحيطُ بهَا سبعةُ أبحرٍ، وفي هذَا إشارةٌ إِلَى قولهِ تعالَى: **﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِـي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾** (لقمان: 27).

وكذلكَ قولُ منصورِ النمريّ فِـي **الرشِيدِ**:

خَلِيفَـةَ اللهِ إِنَّ الْـجُـودَ أَوْدِيَـةٌ أَحَـلَّكَ اللهُ مِـنْـهَا حَـيْثُ تَـجْـتَمِعُ

مَـنْ لَـمْ يَـكُنْ بِبَـنِي العَبَّاسِ مُعْـتَصِمًا فَلَـيْسَ بِـالصَّلَوَاتِ الْـخَـمْسِ يَـنْـتَفِعُ

إِنْ أَخْلَفَ الْـقَـطْـرُ لَـمْ تُـخْلِفْ مَـخَايِلُـهُ أَوْ ضَاقَ أَمْـرٌ ذَكَـرْنَـاهُ فَـيَـتَّسِعُ

وغيرهَا مِنَ المبالغَاتِ الممجوجَةِ.

2- الهجَـاءُ:

(1) جدوى: عطاء، أنامله: أصابعه.

غرضُ الهجاءِ غرضٌ قديمٌ عندَ العربِ، لكنَّ صورَه تعددتْ، وتطورتْ معانيهِ؛ فَـإلَى جانبِ صورةِ الهجاءِ الموروثةِ بالأخلاقِ المذمومةِ فِـي العصـرِ العباسي؛ فَـبَدَا **تَـهكميًا ساخرًا** حينًا كهجاءِ ابنِ الرومي وأَبِـي نُواس الذي يميزهُ الاستخفافُ والتهوينُ والتحقيرُ الماديُّ والمعنويُّ مِنْ شَأنِ المهجوِّ، وإنْ كنَّـا لَا نعدَم فِـي هجاءِ الأخِيرِ بعضَ الإشارَاتِ إلَى التحقيرِ الذِي يمكنُ عَزوُهُ لاتجاههِ الشعُوبيِّ الساخِرِ، مِنْ ذلكَ هجاءُ أَبِـي نُواس أيضًا محمدَ بنَ إسماعيلَ:

فَـتًى لِـرَغِـيفِـهِ قُـرْطٌ وَشَـنْفٌ وَخَلْخَـالَانِ مِـنْ خَـرَزٍ وَشَـذْرِ
إِذَا فَـقَـدَ الـرَّغِيفَ بَـكَى عَلَـيْـهِ بُـكَا الْـخَنْـسَاءِ إِذْ فُجِعَتْ بِـصَخْـرِ
وَدُونَ رَغِـيفِـهِ قَـلْـعُ الـثَّـنَايَـا وَحَـرْبٌ مِـثْـلُ وَقْـعَةِ يَـوْمِ بَـدْرِ

وكانَ **جَارحًا حِينًا** آخرَ يؤدِّي إلَى بكاءِ مهجوٍّ كبشارِ بنِ بُردٍ حينَ هجاهُ حَـمادُ عَجْرَد فبلغَ هذَا الهجاءُ مبلغَه مِنَ الإيلامِ النفسيِّ حتَّى أبكَى بشَّارًا:

وَأَعْـمَـى يُـشْبِهُ الْـقِـرْدَ إِذَا مَـا عَـمِـيَ الْـقِـرْدُ
دَنِـيءٌ لَـمْ يَـرُح يَـوْمًا إِلَـى مَـجْـدٍ وَلَـمْ يَـغْـدُ
وَلَـمْ يَـحْضُـرْ مَـعَ الْـحُـضَّا رِ فِـي خَـيْرٍ وَلَـمْ يَـبْـدُ
وَلَـمْ يُـخْشَ لَـهُ ذَمٌّ وَلَـمْ يُـرْجَ لَـهُ حَـمْـدُ

وَحِينَما سُئِلَ بشارٌ عَن سببِ بُـكائِهِ، أرجعَهُ إِلَى عَماهُ؛ فحَـمَّادٌ يَراهُ ويَصِفُه، وَبشارٌ لَا يراه حتَّى يهجوَهُ، لكنه مَا لَبِثَ أنْ هجَاهُ هِجَاءً لَاذعًا مُوجعًا يدورُ حولَ قبحِ منظرِهِ وقَـذَارتِهِ، وخُبثِ رائحتِهِ ودنَسِ نفسهِ مِنْ خِلالِ عَقد مقارنةٍ بينَه وبينَ الخنزيرِ الذِي يفوقُ المهجوَّ فِـي الجنسِ والعُودِ والمسِّ والرائحةِ:

نَـهَارُهُ أَخْـبَـثُ مِـنْ لَـيْـلِـهِ وَيَـوْمُـهُ أَخْـبَـثُ مِـنْ أَمْسِهِ
وَلَـيْسَ بِـالْـمُقْـلِـعِ عَـنْ غَـيِّـهِ حَـتَّـى يُـوَارَى فِـي ثَـرَى رَمْسِهِ
مَا خَـلَـقَ اللهُ شَبِـيهًا لَـهُ مِـنْ جِـنِّـهِ طُـرًّا وَمِـنْ إِنْسِهِ
وَاللهِ مَـا الْـخِـنْـزِيـرُ فِـي نَـتْـنِـهِ بِـرُبْـعِـهِ فِـي النَّـتْـنِ أَوْ خُـمْسِهِ
بَـلْ رِيـحُـهُ أَطْـيَبُ مِنْ رِيـحِـهِ وَمَـسُّـهُ أَلْـيَـنُ مِـن مَـسِّـهِ

وَوَجْهُهُ أَحْسَنُ مِنْ وَجْهِهِ وَنَفْسُهُ أَنْبَلُ مِنْ نَفْسِهِ
وَعُودُهُ أَكْرَمُ مِنْ عُودِهِ وَجِنْسُهُ أَكْرَمُ مِنْ جِنْسِهِ[1]

قالَ الجاحظُ: "وَأَنا حفِظكَ اللهُ أَستظرِفُ وضعَه الخنزيرَ بهذَا المكانِ، وفِي هذَا الموضعِ حينَ يَقولُ: وَعُودُهُ أَكْرَمُ مِنْ عُودِهِ، وأيُّ عُودٍ للخنزيرِ؟! قبحَه اللهُ وقَبَّحَ مَن يَشتهِي أكلَه"[2].

وبدَا **فَاحشًا بذيئًا** يَصِلُ إلى حدِّ الإسفافِ الذِي يُخشَى قائلُه – فِي غَيرِ هذَا الموقفِ – مِنَ العقَابِ حِينًا ثالثًا، على نحوِ هجاءِ أبِي نُواسٍ أبَا الهندِيّ واتهامِهِ فِي نَسبِهِ ورَمْيِ أمهِ بالزنَا:

الْحَمْدُ لله الْعَلِيِّ (م) ومَنْ لَهُ تَزْكُو الْمَحَامِدْ
أَيَسُبُّنِي رَجُلٌ عَلَيْـ ـهِ مِنَ الْخِزَايَةِ أَلْفُ شَاهِدْ
هَذَا أَبُو الْهِنْدِيِّ فِيـ ـهِ تَشَابُهٌ مِنْ أَلْفِ وَاحِدْ
مَاذَا أَقُولُ لِمَنْ لَهُ فِي كُلِّ عُضْوٍ مِنْهُ وَالِدْ

وَقَدْ بلغَ الهجاءُ مِنَ الشيوعِ والانتشارِ والْجُرأَةِ، وبالإضافةِ إلَى مَا تمتعَ بِهِ الشعراءُ مِنْ حُريةٍ ليستْ معهودةً – ما جعلَ سِهامَهُ تَنالُ الوزراءَ والكبراءَ، وأحيَانًا الخلفاءَ والولاةَ، ولعلَّ هجاءَ المتنبِّي لكافُور أبلغُ شاهدٍ علَى هذَا النوعِ مِنَ الهجاءِ، ومِنهُ داليتُه المشهورةُ التي يَبدؤُها بقولِهِ:

عِيدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عُدْتَ يَا عِيدُ بِمَا مَضَى أَمْ لِأَمْرٍ فِيكَ تَجْدِيدُ

وفِيهَا:

لاَ تَشْتَرِ العَبْدَ إِلاَّ وَالْعَصَا مَعَهُ إِنَّ العَبِيدَ لأَنْجَاسٌ مَنَاكِيدُ
مَا كُنْتُ أَحْسَبُنِي أَحْيَا إِلَى زَمَنٍ يُسِيءُ بِي فِيهِ كَلبٌ وَهْوَ مَحْمُودُ

وَفِيهَا مِنَ السخريةِ اللاذعةِ صُورٌ مُتعددَةٌ، مِنهَا تَصويرُهُ وَأُذُنُهُ دَاميةٌ فِي يَدِ النخَّاسِ، ويَهجوهُ فِي غَيرِهَا سَاخِرًا مِنْ منظَرِ رِجليهِ فِي النعْلِ:

وَتُعْجِبُنِي رِجْلَاكَ فِي النَّعْلِ إِنَّنِي رَأَيْتُكَ ذَا نَعْلٍ وَإِنْ كُنْتَ حَافِيَا

---

(1) **العُودُ:** ضربٌ من الطيب يُتَبَخَّرُ به.

(2) الحيوان: 1/ 241.

وَمِثْلُكَ يَؤْتَى مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ لِيُضْحِكَ رَبَّاتِ الْخُدُورِ الْبَوَاكِيَا

وَمِمَّا قَالَهُ **المتنبِّي** في هِجَاءِ ملوكِ الأعاجِمِ عَامَّةً:

وَإِنَّمَا النَّاسُ بِالْمُلُوكِ وَمَا تُفْلِحُ عُرْبٌ مُلُوكُهَا عَجَمُ
لَا أَدَبٌ عِنْدَهُمْ وَلَا حَسَبٌ وَلَا عُهُودٌ لَهُمْ وَلَا ذِمَمُ
بِكُلِّ أَرْضٍ وَطِئْتُهَا أُمَمٌ تُرْعَى لِعَبْدٍ كَأَنَّهَا غَنَمُ
يَسْتَخْشِنُ الْخَزَّ حِينَ يَلمَسُهُ وَكَانَ يُبْرَى بِظُفْرِهِ الْقَلَمُ

وَمِنْ هجاءِ الوزرَاءِ هِجاءُ **ابنِ بَسَّامٍ** البغدَادي – وهو شاعر هَجَّاءٌ (ويُلقَّبُ بالبسَّامي)[1] – للعباسِ وزيرِ المكتفِي، والسخريةُ مِن شَكلهِ ومَنظرهِ وَمِنْ أفعالهِ وحَركاتهِ عَبر تشبيههِ بِالجاريةِ التي تَرتدِي ثيابَ مَولَاهَا:

وِزَارَةُ العَبَّاسِ مِنْ نَحْسِهَا تَسْتَقْلِعُ الدَّوْلَةَ مِنْ أُسِّهَا
شَبَّهْتُهُ لَمَّا بَدَا مُقْبِلًا فِي حُلَلٍ يُخْجَلُ مِنْ لِبْسِهَا
جَارِيَةً رَعْنَاءَ قَدْ قَدَّرَتْ ثِيَابَ مَوْلَاهَا عَلَى نَفْسِهَا

وَيَكثُرُ هجاءُ الخلفاءِ عندَما يَعتنِقُ الشاعرُ مَذهبًا مُخالِفًا للسلطةِ الحاكمةِ وأَتباعِها، وَمِنْ ذلكَ هِجاءُ **دِعبل الخزاعي**[2] المعروف بتشيعهِ مجموعة من الخلفاء العباسيين، وهُم الرشيد والمأمونُ والمعتصِمُ والواثق، من ذلكَ هجاؤُه للمعتصمِ والواثقِ فِي آنٍ معًا:

خَلِيفَةٌ مَاتَ لَمْ يَحْزَنْ لَهُ أَحَدُ وآخَرٌ قَامَ لَمْ يَفْرَحْ بِهِ أَحَدُ

---

(1) بخلاف **ابن بسام الشنتريني الأندلسي** صاحب كتاب (الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة).

(2) هو محمد بن علي بن رزين، لُقِّبَ بلقب دِعبل الخزاعِي، وهو من أشهر شعراءِ العصر العباسي، وُلِدَ في الكوفة عام 148هـ، ولَقَّبَتْهُ القابلة بدعبل لدعابة كانتْ فيه، وقد اشتهرَ دعبل بقصائده التي يشايع بها آل الإمام علي بن أبي طالب – رضي الله عنه– إضافة إلى اشتهاره بهجائه للخلفاء العباسيين، فهو أحد شعراءِ أهل البيت، وقد حاولَ الخلفاء العباسيونَ أن يَجذبوه بالمال ويغروه، ولكنّه فضّل البقاءَ بعيدًا عن الترف وأصرَّ على هجائه للعباسيينَ ومديحه لآل البيت حتّى أصبح من أهم شعراءِ آل بيت رسول الله ﷺ.

فَـمَـرَّ هَـذَا وَمَـرَّ الشُّـؤْمُ يَـتْـبَعُـهُ فَـقَامَ هَـذَا وَقَـامَ الوَيْـلُ والـنَّـكَـدُ

3-الـرِّثَـاءُ:

نَـشطَ الشعراءُ فِـي فنَّ الرثاءِ نشاطًا واسعًا كالذي شَهدَه فنُّ المدحِ؛ فلَم يَمتْ خليفةٌ وَلَا وزير ولا قائد إلا رَثَـوْه رِثَاء رائعًا، وكما تَخصصَتِ المعاني فِـي مدحِ الخلفاء والوزراء والكتاب والقواد، تَنوعَتْ المعَانِـي فِـي رثائهم؛ إذْ صَورُوا فِـي القُواد بطولَـتَهم ومحنةَ الأمةِ وفجيعةَ الجيوش فِـي وفاتِهم، ففاضَ رِثاؤُهم حُـزنًا وَلَوعةً، وكانتْ مراثيهم أشبهَ بالمراثي الحماسيةِ التي تُضرِمُ الحميةَ فِـي نفوسِ الشبابِ المسلِمِ للدفاعِ عنِ الدينِ والدولةِ من خلالِ تصويرِ بطولةِ المرثيِّ وتمجيدِ قوتِهِ وبسالتِه ودفاعِه حتى الموت، ومِنْ شواهدِ هذَا الرثاءِ مَرثيةُ **أبي تمام** فِـي محمد بن حُـميد الطوسِي الذِي استشهَـدَ فِـي إحْـدَى معاركِهِ معَ جنودِ بَابك، بعد أن أحاطُوا بِهِ فأَبَى الاستسلَامَ أو الانسحابَ، وظَـلّ مُدافعًا ممسكًا بسلاحِهِ حتى فاضَتْ روحُه، وحزنَتِ الأمةُ لفقدِه حُزنًا عظيمًا، وفي رثائِهِ يقولُ أبو تمامٍ:

فَـتًى كُـلَّـمَا ارْتَـادَ الشجَاعُ مِـنَ الـرَّدَى مَـفَـرًّا غَـدَاةَ الْـمَأْزِقِ ارْتَـادَ مَـصْـرَعًا[1]

فَـإِنْ تُـرْمَ عَـنْ عُـمْرٍ تَـدَانَى بِـهِ الْـمَدَى فَخَانَـكَ حَـتَّى لَـمْ تَـجِدْ فِيـهِ مَنْـزَعًا[2]

فَـمَا كُنْتَ إِلَّا السَّيْفَ لَاقَـى ضَـرِيبَـةً فَـقَطَّـعَها ثُـمَّ انْـثَـنَى فتَـقَطَّـعَا![3]

ولهُ مرثيةٌ أخرَى فِـي محمد الطوسي هذَا يقولُ فِيهَا:

فَـتًى مَـاتَ بَيْنَ الضَّـرْبِ والطَّـعْنِ مِـيتَـةً تَـقُومُ مَـقَامَ النَّـصْـرِ إِذْ فَـاتَـهَ الـنَّـصْـرُ

وَمَـا مَـاتَ حَـتَّى مَـاتَ مَـضرِبُ سَيفِـهِ مِـنَ الضَّرْبِ واعْـتَـلَّتْ عَليهِ القَـنَا السُّـمْـرُ

وَقَـدْ كَانَ فَـوْتُ الـمَوْتِ سَهْلاً فَـرَدَّهُ إِلَـيْهِ الْـحِفَاظُ الْـمرُّ والْـخُـلُـقُ الـوَعْـرُ

وَنَـفْسٌ تَـعَافُ الْعَـارَ حَـتَّى كَـأَنَّـهُ هُـوَ الكُـفْـرُ يَـوْمَ الـرَّوْعِ أَوْ دُونَـهُ الكُـفْـرُ

فَـأَثْـبَتَ فِـي مُسْتَـنْـقَعِ الْـمَـوْتِ رِجْلَـهُ وَقَـالَ لَـهَا مِـنْ تَـحْتِ أَخْـمَـصِكِ الْـحَشْـرُ

---

(1) **ارْتَادَ الشيءَ:** طَلَبَهُ، والمكانَ: قصدَهُ، **الرَّدَى:** الهَلاكَ، المَوْتَ، **المَفَرُّ:** الفِرَار، والملجأ أو المهربُ يُفَرُّ إليه **المَأْزِق:** مكان ضيِّق **المَأْزِق** موقف صعب حرج، ورْطَة، شِدَّة وضيق.

(2) **تدانى:** اقترب، **الْـمَدَى:** الغاية والمنتهى، والمراد هنا الأجل والمعنى: أنه مات شابًّا يافعًا، لكنه لم يجد منزعًا أو مفرًّا.

(3) **الضَّرِيبَةُ:** المضروبُ بالسيف، **ضَرِيبَـةُ السَّيْفِ:** حَدُّهُ.

وَكَما تَـأَلَّـمَ الشعراءُ لموتِ الخلفاءِ والقوادِ، تَفجعوا على أبنائِهم وإخوانِهم وأصدقَائِهم وزَوجاتِهم، ومنَ الأخيرِ مَراثِـي ابنِ الزياتِ لزوجتِهِ، هذهِ المراثِـي التِي تَعكِسُ قدرةً على تصويرِ هذَا الحزْنِ وتَمثيلِهِ من خلالِ بيانِ حُزنِ طفلِهِ الذِي افتقَدَ الأمَّ عَطفَها وحنانَها وحضنَها، ومنهُ قولُه:

أَلَا مَـنْ رَأَى الطِّـفْـلَ الْـمُـفَارِقَ أُمَّـهُ بُـعَـيْـدَ الكَـرَى عَـينَاهُ تَـبْـتَـدِرَانِ[1]
رَأَى كُـلَّ أُمٍّ وَابْـنَـهَا غَـيْـرَ أُمِّـهِ يَـبِـيتَانِ تَـحْتَ اللَّـيْـلِ يَـنْـتَـجِيَانِ
وَبَـاتَ وَحِيدًا فِـي الفِـرَاشِ تَـحُـثُّـهُ بَـلابِـلُ قَـلْـبٍ دَائِـمِ الْـخَـفَـقَانِ
فَـلَا تَـلْـحَـيَانِـي إِنْ بَـكَـيْـتُ فَـإِنَّـمَا أُدَاوِي بِـهَـذَا الـدَّمْـعِ مَـا تَـرَيَـانِ
وَهَـبْـنِـي عَـزَمْـتُ الصَّـبْـرَ عَـنْـهَا لِأَنَّـنِـي جَـلِيدٌ فَـمَنْ بِـالصَّـبْـرِ لِابْـنِ ثَـمَانِ
ضَعِيفِ الـقُـوَى لَا يَـطْـلُـبُ الأَجْـرَ حِسْبَـةً وَلَا يَـأْتَـسِي بِـالنَّـاسِ فِـي الْـحَدَثَـانِ

وَلَا نَنسَى فِـي هذَا المقام مرثيةَ ابنِ الرومي الذائعةَ في ولدِه مُـحمد، وقدِ اختطفَه الردَى، فأورَثَ أَبَاهُ حزنًا يضيق به الصدرُ، يقول ابن الرومي داليتِهِ المشهورةِ:

بُـكَاؤُكُما يَـشْفِي وَإِنْ كَانَ لَا يُـجْـدِي فَـجُودَا فَـقَـدْ أَوْدَى نَظِيـرُكُـمَا عِـنْدِي
بُـنَـيَّ الَّـذِي أَهْـدَتْـهُ كَـفَّايَ لِلثَّـرَى فَـيَا عِـزَّةَ الْـمَهْدِيِّ وَيَا حَسْـرَةَ الْـمُهْدِي
أَلَا قَـاتَـلَ اللَّـهُ الـمنَايَا وَرَمْـيَهَا مِنَ القَـوْمِ حَـبَّاتِ الْقُـلُوبِ عَلَى عَمْـدِ
تَـوَخَّى حِـمَامُ المَوْتِ أَوْسَطَ صِبْـيَتِـي فَلِلَّهِ كَـيْفَ اخْـتَارَ وَاسِطَـةَ العِقْـدِ
عَلَـى حِـينَ شِمْتُ الخَـيْـرَ مِنْ لَـمَحَاتِـهِ وَآنَـسْتُ مِنْ أَفْـعَالِـهِ آيَـةَ الـرُّشْدِ
طَـوَاهُ الـرَّدَى عَـنِّي فَـأَضْحَى مَـزَارُهُ بَـعِيدًا عَلَـى قُـرْبٍ قَـرِيباً عَلَـى بُـعْـدِ
لَـقَدْ أَنْـجَـزَتْ فِـيـهِ المـنَايَا وَعِيدَهَا وَأَخْلَـفَتِ الآمَـالُ مَـا كَـانَ مِـنْ وَعْـدِ

وَمِنَ الموضوعاتِ الجديدةِ فِـي شعرِ الرثاءِ التِي شاعَتْ على ألسنةِ كثيرٍ مِنَ الشعراءِ **رثاءُ المُدُنِ** وعمرانها بعد أن لحقَها الدمَارُ والتخرِيبُ، ومِنْ ذلكَ رثاءُ مدينةِ بغدادَ بعدَ الخلافِ بينَ الأمينِ والمأمونِ،

(1) **الكرى:** النوم، **تبتدران:** تدمعان، يقال: **ابتدَرَتْ** عيناه: سالت دُموعُها، وفي رواية: تنسكبانِ.

ورِثَاءُ الطيرِ والحيوانِ الأليفِ الذِي شاعَ اقتناؤُه فِي بيئةٍ غمرَها الترفُ والبذَخ فِي شَتَّى مناحِي الحياةِ، مِنْ هذهِ الحيواناتِ الماعز والفَرس والهِرّ والكَلب، بالإضافةِ إلَى **رثاءِ البساتينِ والحدائقِ والقُصورِ.**

فَمِنْ **نماذج رثاءِ الحيوانِ الأليفِ** مَا يُروَى عنِ **ابنِ الزياتِ**؛ إذْ كانَ لَه فرسٌ أشهبُ لَم يُرَ مِثلُه حُسنًا، طلبَه منهُ الخليفةُ المعتصِمُ بعدَ سماعِهِ عنهُ، لكنهُ لَمْ يَستطِع لطلبِهِ رَدًّا، فأعطاهُ إياهُ ورثَاهُ بقصيدةٍ طويلةٍ تتزاحمُ فيها مفرداتُ معجمِ الرثاءِ، وتَشكُو مكابدةَ الجوَى والهوَى والحزْن، ومِنهَا قولُه:

كَيفَ العَزَاءُ وَقَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ عَنَّا فَوَدَّعَنَا الأَحَمُّ الأَشْهَبُ[1]

مَنَعَ الرُّقَادَ جَوًى تَضَمَّنَهُ الْحَشَا وَهَوًى أُكَابِدُهُ وهَمٌّ مُنْصِبُ

وَمِنْ شَواهدِ الرثاءِ التي تَعكِسُ مَا آلَ إليهِ حالُ بعضِ الشعراءِ فِي العصرِ العباسيِّ مِنَ اقتناءِ الحيواناتِ المستأنسَةِ والتعلقِ بِهَا والتفجعِ عليهَا بعدَ موتِها – من شواهدِهِ **رِثاءُ ابنِ العَلَّاف لِهِرِّهِ** الذي ذبحَه أحدُ جيرانِهِ بعدَ أنِ اعتدَى علَى أبرَاجِ حَمامٍ لَه:

يَا هِرُّ فَارقْتَنَا وَلَمْ تَعُدِ وَكُنْتَ مِنَّا بِمَنْزِلِ الوَلَدِ

فَكَيْفَ نَنْفَكُّ عَنْ هَوَاكَ وَقَدْ كُنْتَ لَنَا عُدَّةً مِنَ الْعُدَدِ

تَطْرُدُ عَنَّا الأَذَى وَتَحْرُسُنَا بِالغَيْبِ مِنْ حَيَّةٍ وَمِنْ جُرَدِ[2]

وتُخْرِجُ الْفَأْرَ مِنْ مَكَامِنِهَا مَا بَيْنَ مَفْتُوحِهَا إِلَى السُّدَدِ[3]

وَمِنْ **رِثاءِ المدنِ** رِثَاءُ مدينةِ بغدادَ حِينَما أحاطَ بِهَا الجيشُ قبلَ مقتلِ الأمينِ ورمَاهَا بِالمنجنيقِ فاندلعَتْ فِيهَا النيرَانُ واحترقَتْ بعضُ أحيائِهَا وحلَّتْ بِهَا كوارثُ النهْبِ والقتلِ، فبكَاهَا كثيرٌ مِنَ الشعراءِ، ومِنْ ذلكَ مَا رواهُ ابنُ كَثيرٍ فِي كتابِهِ (البدايةُ والنهايةُ)، حيثُ قالَ: فقالَ بعضُهم فِي ذَلِكَ[4]، وَلَم يَذكُرِ اسْمَ الشاعرِ:

---

(1) **الأحم:** الأسود من كل شيء، **الأشهب:** ما اختلط فيه السواد بالبياض، يقال: وَلَدٌ **أَشْهَبُ:** وَلَدٌ خالَطَ البَياضُ سَوادَ شَعْرِهِ.

(2) **جُرَد:** كناية عمّا جُرِّدَ عنه الشعر أو الريش من الحيوان.

(3) **مَكَامِنِهَا:** مخابئها وجحورها، **مَفْتُوحِهَا إِلَى السُّدَدِ:** ما كان من هذه الجحور مفتوحًا، وما كان منها مسدودًا مغلقًا.

(4) انظر حديث ابن كثير عن سنة سبع وتسعين ومائة من كتابه البداية والنهاية، الجزء العاشر.

مَـنْ ذَا أَصَابَـكِ يَـا بَـغْـدَادُ بِالعَـيْنِ أَلَـمْ تَـكُونِـي زَمَـانًا قُـرَّةَ العَـيْـنِ؟
أَلَـمْ يَـكُنْ فِـيكِ قَـوْمٌ كَانَ مَسْكَـنُـهُمْ وَكَانَ قُـرْبُـهُمُ زَيْـنًا مِـنَ الـزَّيْـنِ؟
صَاحَ الـغُـرَابَ بِـهِمْ بِـالْـبَـيْنِ فَافْـتَـرَقُـوا مَـاذَا لَـقِيتُ بِـهِمْ مِـنْ لَـوعَـةِ الْـبَـيْنِ
أَسْتَـوْدِعُ اللهَ قَـوْمًـا مَـا ذَكَـرْتُـهُمُ إِلَّا تَـحَـدَّرَ مَـاءُ الْـعَيْـنِ مِـنْ عَـيْنِـي
كَـانُوا فَـفَـرَّقَـهُمْ دَهْـرٌ وَصَدَّعَـهُمْ وَالـدَّهْـرُ يَـصْدَعُ مَـا بَـيْنَ الْـفَـرِيقَـيْـنِ

4- الْـغَـزَلُ:

شَهِدَ شِعرُ الغزل تطورًا ملحوظًا وانتشارًا واسعًا فِـي العصـرِ العباسيِّ، نظـرًا لشيوعِ مظاهرِ الترفِ والمجونِ كالغناءِ والموسيقَى والخمرِ، من هذهِ المظاهرِ – كما بينَّا فِـي تيارِ المجونِ – انتشارُ مجالسِ اللهوِ والشرابِ التي امتلأتْ بالمغنياتِ والجـوَارِي اللائِـي خَلَعْنَ ثِيابَ العفةِ والفضيلةِ الذِي طالَـما تَـحَلَّتْ بهِ المرأة العربيةُ، والتفافُ طائفةٍ منهنَّ حولَ الشعراءِ الذينَ عُـرِفُوا بِالعَبِّ مِن كـؤُوسِ اللذةِ والشهوَاتِ، والذينَ شاعَ تَـرَدُّدُهُم علَى مجالِس اللهوِ والغناءِ، حتَّى إنَّ بيوتَ بَعضِهم تَـحَوَّلَتْ إلى دُورِ لَـهوٍ وغِنَاءٍ وشربٍ للخمـرِ. هذَا بالإضافةِ إِلَى تطورِ النموذَجِ الجمالـيِّ للمرأةِ وتبدلِـهِ، فلمْ تَـعُدِ المـرْأةَ العربيةَ العفيفةَ المصونةَ المحجوبةَ عن عيونِ الشعراءِ، وإنما أصبحتِ المرأةَ المبتذلَـةَ المتفننةَ فِـي إظهارِ مفاتنِهَا الجسديةِ وإغواءِ الآخَرِ بفنونِ اللهوِ التي تَعلمتْها وبَرعتْ فيها، فضلاً عن التحَللِ من العديدِ مِنَ القِيَمِ الفاضلَةِ الموروثةِ فِـي هذَا العصـرِ. فإذا تأملنا ذلكَ كلَّه أدركنَا تطورَ أو تحولَ الغزلِ وانحدَارَهُ إِلَى **الغَزلِ الإباحيِّ** المعبـرِ عن اللهوِ والفجورِ الذي باعدَ بينَه وبينَ الغزلِ الموروثِ فِـي التراث الأدبي السابقِ عليهِ. ومنْ ثَم تنوعَتْ صورُ الغزلِ الماجنِ، وكانَ **التغزلُ بالغلمانِ**(1) أبلغَها وأوضحَها دليلًا علَى تهاوِي الغزلِ فِـي أتونِ الرذيلةِ والفجورِ، حتى أصبحَ دعوةً للفجورِ وحثًّا عَلى تِلكَ العادةِ الرذيلةِ التي عَمَّتْ بلواهَا فِـي المجتمَعِ العباسيِّ على أيدِي الفجرةِ مِنَ الموالِـي؛ على نحو ما ذاعَ بينَ الفرْسِ فِـي مجتمعَاتِهم.

مِنَ النماذِجِ المصورَةِ لظاهـرَةِ التغـزُّلِ بِالغلمانِ ما قالَه **أَبُو نُواس** فِـي التغزلِ بأحدِهم، وعندَ تأملِ هذَا النموذَجِ وبخاصةٍ البيتُ الأَخِيـرُ نجدُ أنَّ ضَميرَ المذكَّـرِ والتصريحَ بصاحبِهِ، ثُم المقارنةَ بينَ حَالـهِ

(1) عرضنا لبعض نماذج التغزل بالغلمان عند الحديث عن قضيتي الشعوبية والمجون.

الظاهرةِ للعيانِ وحَالِـهِ فِـي الخلوَاتِ – يَشِي ذلكَ كله بما أصابَـهُ الغـزَلُ مِن تطورٍ فِي الناحيةِ الموضوعيةِ، حتَّى أَضْحَى دعوةً صريحةً للخَلاعَةِ والفجورِ بَـدلًا مِنَ التغنِّي بمفاتنِ المرأةِ الخِلقيةِ والْـخُلقيةِ كما كانَ الأمرُ مِنْ قَبلُ:

يَـا بِـدْعَـةً فِـي مِـثَالٍ يَـجُـوزُ حَـدَّ الصِّفَاتِ
فَـالْـوَجْـهُ بَـدْرُ تَـمَامٍ بِـعَـيْنِ ظَـبْـيٍ فَـلَاةِ
مُـذَكَّـرٌ حِـينَ يَـبْـدُو مُـؤَنَّـثُ الْـخَـلَـوَاتِ

ويَـختلِفُ النقادُ فِـي تَفسيرِ ظاهرةِ الغـزَلِ بالمذكَّـرِ: فالدكتورُ **محمدُ النويهي** يَـرَاها مَظهرًا حضاريًّا مألوفًا فِـي الحضاراتِ الإنسانيةِ الكُبـرَى، حيثُ ينشأُ الميلُ إلَى الجنسِ نفسِهِ[1]، وهناكَ مَن يَـرَاهَا أَثَـرًا مِنْ آثارِ بروزِ العنصرِ الفارِسيِّ فِـي الحياةِ العربيةِ، وبخاصةٍ عقيدةُ المانويَّـةِ التي كانَ مِنْ مظاهرِهَا السلوكيةِ استخدَامُ الرجُلِ غُلامًا أَمْـرَدَ فِـي قضَاءِ شُؤونِهِ[2]، أمَّا **د. عزّ الدين إسماعِيل** فَلَا يَـرَى فِي تِلكَ الظاهِرَةِ أمْـرًا جديدًا، وما هيَ إلا تقليدٌ للغـزَلِ بالمـرأَةِ، يقولُ **د. عز الدين**: "وهكذَا يتحَـرَّكُ معظمُ شِعرِ الغزَلِ بالمذكَّـرِ فِـي إطارِ الغزَلِ بِالمرأَةِ، سَواءٌ مِنْ حيثُ الأوصافُ الحِسيةُ والعلاقاتُ المعنويةُ. أمَّا التعهرُ فِـي هذَا الغزَلِ فلَمْ يَـكنْ أكثـرَ مِنَ التعهُّـرِ فِـي الغزَلِ بالمـرأَةِ"[3]، وَمِـمَّا يَستدِلُّ بِـهِ **د. عِزُّ الـدِّينِ** قولُ **أَبِـي نُواسٍ**:

قُـلْ لِـذِي الطَّـرْفِ الْـخَلُوبِ وَلِـذِي الْـوَجْـهِ الْـغَـضُوبِ
وَلِـمَنْ يُـثْـنِـي إِلَـيْهِ الْـ ـحُـسْنُ أَعْـنَاقَ الْـقُـلُوبِ
يَـا قَـضِيبَ الْـبَانِ يَـهْـتَـزُّ عَـلَى دِعْـصٍ كَـثِيبِ
قَـــدْ رَضِـيـنَا بِـسَـــلَامٍ أَوْ كَـلَامٍ مِـنْ قَـرِيبِ
فَـبِـرُوحِ الْـقُـدْسِ عِيسَى وَبِـتَـعْـظِيـمِ الصَّـــلِيـبِ
قِـفْ إِذَا جِـئْـتَ إِلَـيْـنَا ثُـمَّ سَـلِّـمْ يَـا حَـبِيبِي..!

---

(1) انظر د. محمد النويهي: نفسية أبي نواس، مكتبة النهضة المصرية، 195م، ص 88.

(2) انظر د. عز الدين إسماعيل: فِـي الشعر العباسي الرؤية والفن، ص 376.

(3) السابق: ص378.

فالصفَاتُ التِي يُوصَفُ بِـهَا المـذكَّـرُ فِـي هَذهِ الأبياتِ هِيَ ذاتُـها الصفاتُ التي تُوصَفُ بها المرأةُ الحسناءُ.

أَمَّا نَظـرَةُ الشعراءِ الحسيةُ إلى المرأةِ التي وَجَّهَتْ شِعرَ الغزَلِ وجهةً حسيةً لَـمْ تُعهَدْ مِن قَبلُ فيُوجِزُها بشارٌ فِـي بيتينِ لَه؛ فالمرأةُ المخبأَةُ المصونَـةُ – فِـي نَـظرِهِ – مَـخلوقَـةٌ لِتُـشْتَهَى وَتُـنَالَ، فَلَا تَستَعْصِي عَلَـى طَالِبٍ لَـهَا أبدًا، حَتَّى وإنْ أَظْـهَـرَتْ غَـيرَ ذَلِكَ:

لَا يُـؤْيِسَـنَّكَ مِـنْ مُـخَـبَّـأَةٍ قَـوْلٌ تُـغَـلِّـظُـهُ وَإِنْ جَـرَحَا
عُـسْـرُ النِّـسَاءِ إِلَـى مُياسَـرَةٍ والصَّعْبُ يَسْهُـلُ بَـعْـدَمَـا جَـمَحَا

وَمِنَ الصوَرِ الحِسيةِ الطريفَةِ التِي التقطَها **بشارٌ** ليبرزَ عبرَ تفاصيلِهَا جَـمالَ المـرْأةِ وحسنَها، وهِـيَ صورةٌ تعكسُ تَطورَ المعانِـي والصوَرِ تَأثُّـرًا بالتطورِ الذِي رأينَاهُ فِـي العصـرِ بعامةٍ، وفِـي الحياةِ الاجتماعيةِ بصفةٍ خاصةٍ:

وَكَـأَنَّ رَجْـعَ حَـدِيثِـهَا قِـطَـعُ الـرِّيَـاضِ كُـسِينَ زَهْـرًا
وَكَـأَنَّ تَـحْتَ لِـسَانِـهَا هَـارُوتَ يَـنْـفُـثُ فِـيـهِ سِـحْـرَا
حَـوْرَاءُ إِنْ نَـظَـرَتْ إِلَيْـ ـكَ سَـقَـتْـكَ بِـالعَـيْـنَـيْنِ خَـمْـرَا
وَتَـخَالُ مَـا جُـمِـعَتْ عَـلَـيْـ ـهِ ثِـيَابُـهَا ذَهَـبًا وَعِـطْـرًا

تجسَّدَتْ طرافةُ التشبيهاتِ فِـي النموذجِ السابقِ فِـي المزاوجةِ بينَ الحواسِّ التي تُـتَلقَّى بِـهَا هذهِ الصورُ والتشبيهاتُ، فالشاعرُ أدركَ بالسمعِ مَا لا يُـدرَكُ إلَّا بغيرِهِ، وكيفَ لَا؟! "والأذنُ تَعشَقُ قبلَ العينِ أحيانًا" كما صرحَ الشاعِرُ نفسُه:

يَـا قَـوْمُ أُذُنِـي لِـبَعْضِ الـحَيِّ عَاشِقَـةٌ وَالأُذْنُ تَـعْشَـقُ قَـبْلَ العَـيْنِ أَحْـيَانًـا
قَـالُوا بِمَـنْ لا تَـرَى تَـهْذِي؟ فَـقُـلْتُ لَـهُمْ: الأُذْنُ كَالعَـيْنِ تُـوْفِـي القَلْبَ مَـا كَـانَـا

لَـمْ يَقتصِـرِ الغزلُ فِـي العصـرِ العباسِيِّ علَى صُورتِهِ الحسيةِ التِي عبّـرَ عنهَا بشّارٌ آنفًا، بَلْ وجدْنَا صورةً أخرَى يَـكادُ الشاعِرُ يقصرُ ديوانَه الشعريَّ عليهَا، وَهِيَ **الغزلُ العفيفُ** الذِي كانَ ظاهرةً جَلِيَّـةً وتيارًا واضحًا فِـي العصـرِ الأمويِّ، ومِنْ هؤلاءِ الشعرَاءِ فِـي العصرِ العباسيِّ **العباسُ بنُ الأحنفِ** الذي اتخذَ مِنَ الغزَلِ العفيفِ مَذهبًا شِعريًا، تَردَّدتْ فيهِ مُفردَاتُ الغزلِ العذرِيِّ؛ ففيهِ واحديةُ المحبوبةِ،

والاقتصارُ عليهَا والوفاءُ لَـها، وإبرَامُ العهودِ علَى الإخلاصِ لَـها فِـي الدنيَا والآخرةِ، وفيهِ الفِـراقُ ولوعتُه، والدموعُ وانهمارُها، والشحوبُ والهـزَالُ، والحزنُ والألَـمُ وطولُ المعاناةِ. ومِنَ النماذجِ المعبِّـرَةِ عنِ المعانِـي السابقةِ قَصيدَةُ **العبَّاسِ بنِ الأحنَفِ** التِي يَبدؤُها بقولِهِ: **"أَزَيْـنَ نِسَاءِ العَالَـمِينَ أَجِـيبِـي – دُعَـاءَ مَـشُوقٍ بِـالْـعِـرَاقِ غَـرِيبِ"**، وَالتِـي نلمحُ عبْـرَ أصواتِـها وألفاظِهَا وصورِهَا العاطفةَ الصادقةَ والمعانَاةَ الحقيقيةَ، وفِيهَا:

أَخُـطُّ وَأَمْـحُو مَـا خَطَطْتُ بِـعَـبْـرَةٍ تَسِحُّ عَـلَـى القِـرْطَاسِ سَـحَّ غُـرُوبِ
أَيَـا **فَـوْزُ** لَـوْ أَبْـصَـرْتِـنِي مَا عَـرَفْـتِـنِـي لِطُـولِ شُجُـونِـي بَـعْـدَكُـمْ وَشُـحُـوبِـي
وَأَنْـتِ مِـنَ الـدُّنْـيَا نَـصِيبِـي فَإِنْ أَمُـتْ فَـلَيْتَـكِ مِـنْ حُـورِ الْـجِـنَانِ نَصِيبِـي
سَـأَحْـفَـظُ مَـا قَـدْ كَـانَ بَـيْـنِي وَبَـيْـنَـكُمُ وَأَرْعَـاكُـمُ فِـي مَـشْـهَدِي وَمَغِيبِي

وإذَا كانَ العباسُ بنُ الأحنفِ قدْ عُرِفَ واشتُهِرَ بهذَا اللونِ مِنَ الغزلِ، فَمِنَ العَجيبِ أنْ نَـرَى بعضَ المعاني والمفردات التي تَنتمِي للشعرِ العفيفِ لشاعرٍ مُـتقِنٍ لِلغَـزَلِ الحسيِّ **كبشَّارٍ**، وَمِنْ ذَلكَ قولُـه:

لَقَـدْ زَادَنِـي مَـا تَعلَمِينَ صَبَابَـةً إِلَـيْكِ فَلِلْـقَلْبِ الْـحَـزِينِ وَجِـيبُ
وَمَـا تُـذْكَـرِينَ الـدَّهْـرَ إِلَّا تَـهَلَّـلَتْ لِـعَيْنَـيَّ مِـنْ شَـوْقٍ إِلَـيْكِ غُـرُوبُ
أَبِـيتُ وَعَـيْنِـي بِالـدُّمُوعِ رَهِينَـةٌ وَأُصْبِـحُ صَـبًّا وَالفُـؤَادُ كَئِـيبُ
إِذَا نَطَـقَ القَـوْمُ الـجُلُوسُ فَـإِنَّـنِـي أُكِـبُّ كَـأَنِّـي مِـنْ هَـوَاكِ غَـرِيبُ
أَلَا لَـيْتَ شِعْرِي: هَـلْ أَزُورُكِ مَـرَّةً وَلَـيْسَ عَلَـيْنَا يَا **"عُـبَـيْـدُ"** رَقِـيبُ
فَـنَشْفِي فُـؤَادَيْـنَا مِنَ الشَّوْقِ وَالْـهَوَى فَـإِنَّ الـذِي يَـشْفِـي المحِـبَّ حَبِـيبُ

فَقَدْ حَاولَ **بشارٌ** فِـي النصِّ السابقِ – وَفِـي نماذجَ أُخْـرَى – إيـهام المتلقِّي باقتصارِهِ علَـى محبوبةٍ واحدةٍ ومعاناتِـهِ وألَـمِهِ وشعورِهِ بالغربَـةِ والاغترابِ الذِي أحسَّ به العباسُ فِـي النصِّ السابقِ، لكنْ مَا تَلبثُ هَذِهِ المـزَاعِمُ أنْ تتهَاوَى أمامَ ظهورِ بعضِ ألفاظِ الغـزَلِ الحسيِّ كما رَأينَا.

وَقَـد سجَّلَ **معجمُ الغـزَلِ** فِـي الشعرِ العباسيِّ بالإضافةِ إلَـى مَا أوردنَاهُ سَلفًا، بعض مظاهرِ التطورِ بالنظرِ إلَى عاداتِ الشعـرَاءِ فِـي الغـزَلِ العفيفِ فِـي العصـرِ الأمويِّ، ومِنْ ذلكَ تَبادُلُ الرسائلِ

الغَـرَاميةِ والهدايَا دلالَـةً علَى تأججِ عاطفةِ الحبِّ عندَ المحبينَ، ولنتأملْ رِسَالَـةً كَـتبَها **بَشارٌ** لمحبوبتهِ إنكارًا لجفائِها عليهِ مُـجسّدًا هذَا الجفاءَ فِـي تأخـرِ رَسائلِهَا المعبـرةِ عَنِ استمراريةِ هذَا الحـبِّ:

مِـنَ الْـمَشْهُورِ بِـالْـحُبِّ إِلَـى قَـاسِيَـةِ الْـقَـلْبِ
سَـلَامُ اللهِ ذِي الْـعَـ ـرْشِ عَـلَى وَجْـهِـكِ يَـا حِـبِّـي
فَـأَمَّـا بَـعْـدُ يَـا قُـرَّ ةَ عَـيْـنِـي وَمُـنَى قَـلْـبِـي
وَيَـا نَـفْـسِـي التِي تَسْـكُـنُ بَـيْـنَ الْـجَـنْبِ وَالْـجَـنْـبِ
لَـقَـدْ أَنْـكَـرْتُ يَـا **عَـبْـدُ** جَـفَـاءً مِـنْـكِ فِـي الْـكُـتْـبِ

5- الْـفَـخْـرُ:

الفخـرُ مِنَ الأغـرَاضِ الشعريَّـةِ الموروثةِ التي أصابَـها التطورُ والتجديدُ فِـي العصـرِ العباسيِّ، فَلَئِـنْ خَـبَا ضوءُ **الفخْرِ القبلـيِّ** فِـي هذَا العصْـرِ، لَـقَـدْ بَـزَغَ **الفخـرُ الشخصيُّ** وعلا نَجمُهُ وبَلغَ مبلغًا عظيمًا، واتسمَ بالمبالغةِ والتهْويلِ فِـي بعضِ معَانيهِ وكثيـرٍ مِـنْ أَخيلَتِـهِ، لكنه لَـمْ يَصِلْ إلى مَا حَظِـيَ بِـهِ فَـنُّ المـدحِ مِنْ مبالغَةٍ وتهويلٍ يعودُ سببُه إلَـى مَا أُولِعَ به الفُرسُ منذُ القِدَمِ مِنْ إفْـرَاطٍ فِـي المبالغةِ، واستحسانِ الخلفاءِ العربِ لِـمِـثْـلِ هذهِ المبالغاتِ فِـي المدحِ، وَقَـدْ نهجَ الشعراءُ العربُ النهجَ نفسَه.

ومِنْ صوَرِ التجديدِ فِـي هذا الغرَضِ **فَخْـرُ المـوَالِـي الشعوبـيّ** بعدَ أنْ نَالُوا مكانةً عُليَـا فِـي الدولةِ العباسيةِ؛ فكان فخرُهم بأصولِـهم الفارسيةِ والروميةِ، وافتخارُهم بتاريخِهم وملوكِهم وحضارتِهم وقصورِهم ومَأكلِهم ومَشربِـهم، ولعلَّ فِـي قصيدَةِ **بشارٍ** التي يَبدؤُها بقولهِ: "هل مِنْ رسولٍ مُـخبِـرٍ عني جميعَ العرَب" شَاهدًا على هذَا الفخْـرِ:

هَـلْ مِـنْ رَسُـولٍ مُـخْـبِـرٍ عَـنِّـي جَـمِـيعَ العَـرَبِ
مَـنْ كَـانَ حَـيًّا مِـنْـهُـمُ وَمَـنْ ثَـوَى فِـي التُّـرُبِ
بِـأَنَّـنِـي ذُو حَـسَـبٍ عَـالٍ عَـلَـى ذِي الْـحَـسَبِ
جَـدِّي الَّـذِي أَسْـمُـو بِـهِ كِـسْـرَى وَسَـاسَـانُ أَبِـي
وَقَـيْـصَـرٌ خَـالِـي إِذَا عَـدَدْتُ يَـوْمًـا نَـسَبِـي

وَبالإضافَةِ إِلَى الفخرِ بالأنسابِ والأحسابِ هناكَ الفخرُ بالزعامةِ قبلَ الإسلامِ وبالأفضليةِ بعدَ اتباعِ الرسولِ الكريمِ ﷺ، وفِي ذلكَ المعنَى يَقولُ **أَبُو يَعقوب بن حسَّان الخريمِيّ**:

وَإِنَّ أَبِي سَاسَانُ كِسْرَى بْنِ هُرْمُزٍ ... وَخَاقَانُ لِي لَوْ تَعْلَمِينَ نَسِيبُ[1]

مَلَكْنَا رِقَابَ النَّاسِ فِي الشِّرْكِ كُلُّهُمُ ... لَنَا تَابِعٌ طَوْعُ الْقِيَادِ جَنِيبُ

فَلَمَّا أَتَى الإِسْلَامُ وَانْشَرَحَتْ لَهُ ... صُدُورٌ بِهِ نَحْوَ الأَنَامِ تُنِيبُ

تَبِعْنَا رَسُولَ اللهِ حَتَّى كَأَنَّمَا ... سَمَاءٌ عَلَيْنَا بِالرِّجَالِ تَصُوبُ

وَيَقولُ **مَهيَار**[2] **الديلمِيُّ**:

أُعْجِبَتْ بِي بَيْنَ نَادِي قَوْمِهَا ... أُمُّ سَعْدٍ فَمَضَتْ تَسْأَلُ بِي

سَرَّهَا مَا عَلِمَتْ مِنْ خُلُقِي ... فَأَرَادَتْ عِلْمَهَا مَا حَسَبِي

لَا تَخَالِي نَسَبًا يَخْفِضُنِي ... أَنَا مَنْ يُرْضِيكِ عِنْدَ النَّسَبِ

قَوْمِيَ اسْتَوْلَوْا عَلَى الدَّهْرِ فَتًى ... وَمَشَوْا فَوْقَ رُؤُسِ الْحِقَبِ

عَمَّمُوا بِالشَّمْسِ هَامَاتِهِمُ ... وَبَنَوْا أَبْيَاتَهُمْ بِالشُّهُبِ

وَأَبِي كِسْرَى عَلَى إِيوَانِهِ ... أَيْنَ فِي النَّاسِ أَبٌ مِثْلُ أَبِي

سَوْرَةُ الْمَلْكِ الْقُدَامَى وَعَلَى ... شَرَفِ الإِسْلَامِ لِي وَالأَدَبِ

قَدْ قَبَسْتُ الْمَجْدَ مِنْ خَيْرِ أَبٍ ... وَقَبَسْتُ الدِّينَ مِنْ خَيْرِ نَبِي

وَضَمَمْتُ الْفَخْرَ مِنْ أَطْرَافِهِ ... سُودُدَ الْفُرْسِ وَدِينَ الْعَرَبِ

---

(1) **ساسان** هو الكاهن الزرادشتي العظيم آناهيتا وجد الملك أردشير الأول مؤسس الإمبراطورية الساسانية، لقب كان يُطلق على ملوك الفرس، والجمع أكاسرة، **الخاقَانُ:** لقب لكلِّ ملكٍ من مُلوك التُّرك، والجمع خواقين، ونسيب: أي قريب أو صهر.

(2) معنى اسم **مَهْيَار**: الجميل كالقمر، ولفهم معنى اسم مَهيَار فهو مركب مِنْ "مَاه: القَمر"، ويُلفَظ كذلك "مَـهْ"، و"يَـار: صاحب، مالك". فصارَ معنَى اسم مَهيَار: صاحب القمر، أو الجميل كالقمر.

أَمَّـا **الفخْـرُ الشخصِيُّ** فقدْ ظلتْ دِعامتُـهُ القيمَ الأخلاقيةَ النبيلةَ التِي طَالَـما تَغنَّى بِـها العربِـيُّ وعلَى رأسِهَا الحلمُ والمروءةُ وعُلـوُّ الهمةِ والشجاعةِ والكَـرم وتَـميزِ المكانةِ وعُلو النسَبِ وشَرفُـه، عَلَـى نحوِ فَخرِ **المتنبِّي** والمبالغة فيهِ، وفَخر **أبِـي فِرَاسٍ** والصدقِ فيهِ، وفَخرِ **أبِـي العَلاء المعريِّ**.

مِنْ نَماذجِ الفخرِ أبياتُ **أبِي فِرَاس** التِي يَـرُدّ فيهَا علَى مَنْ يُنكِرُ عليهِ تعففَه وعدمَ تَكالبِهِ علَى أخذِ الخيولِ كما فعلَ غيرُه مِنْ أبناءِ عُمومتِه، فيورِدُ بعضَ المعانِي التي تُؤكِّدُ شجاعتَه وكرمَه وَعُلوَّ نَسبِهِ وشَرفه:

وَتَـعَافُ لِـي طَـمَعَ الْـحَـرِيصِ أُبُـوَّتِـي وَمُـرُوءَتِـي وَفُـتُـوَّتِـي وَعَـفَافِـي
خَـيْـلِـي وَإِنْ قَـلَّـتْ كَـثِـيرٌ نَـفْـعُـهَا بَـيْـنَ الصَّـوَارِمِ وَالْـقَـنَا الـرَّعَّـافِ
وَمَـكَارِمِـي عَـدَدُ الـنُّـجُومِ وَمَـنْـزِلِـي مَـأْوَى الْـكِـرَامِ وَمَـنْـزِلُ الْأَضْـيَاف
لَا أَقْـتَـنِي لِـصُـرُوفِ دَهْـرِيَ عُـدَّةً حَـتَّـى كَـأَنَّ صُـرُوفَـهُ أَحْـلَافِـي
شِـيَـمٌ عُـرِفْـتُ بِـهِـنَّ مُـذْ أَنَـا يَـافِـعٌ وَلَـقَـدْ عَـرَفْـتُ بِـمِـثْـلِـهَا أَسْـلَافِـي

فَالشاعِـرُ يُـركِّـزُ فخرَهُ فِـي الأبياتِ السابقةِ فِـي صِفتيْنِ عَظيمتيْنِ، همَا الشجاعةُ والكرمُ، وقَد ورثَ هَاتينِ الصفتينِ عَن آبائِهِ، فهوَ أَصيلٌ فِـي شجاعتِهِ، يَتبعُ نهجَ قومِهِ، كَريم مِنْ نَسْلِ كِرامٍ، وتَعبيرُهُ عنْ نَفسهِ واضحٌ سهلٌ، لا تَـكلفَ فيهِ وَلَا تَعقِيدَ[1].

أمَّـا فَخـرُ **المتنبِّي** فيتميزُ – كَـما أشرْتُ – بِكثيرٍ مِنَ المبالغَاتِ التِي يُعظِّـمُ فِيهَا شَأنَـه؛ فَـكثيرًا ما يَرى أن قومَه يَعتزونَ بِهِ ويفتخرونَ بِهِ وَلا يَـفخرُ هوَ بِهم مُـخالفًا بذلكَ عادةَ الشعراءِ فِـي الفخرِ، إِذْ كانُوا يَـفخرونَ بآبائِهم وأجدادِهم، وبما ورثُوه عنْ أسلافِهم من مكارِمَ وشِيَـمٍ نَبيلةٍ؛ كما رأينا عندَ أبِـي فراس فِـي النموذجِ السابقِ، يقول **المتنبِّـي**:

لَا بِـقَـوْمِـي شَـرُفْـتُ بَـلْ شَـرُفُـوا بِـي وَبِـنَـفْسِـي فَـخَـرْتُ لَا بِـجُـدُودِي
وَبِـهِـمْ فَـخْـرُ كُـلِّ مَـنْ نَـطَـقَ الضَّـا دَ وَعَـوْذُ الْـجَانِـي وَغَـوْثُ الـطَّـرِيـدِ
أَنَـا تِـرْبُ النَّـدَى وَرَبُّ الْـقَـوَافِـي وسِـمَامُ الْـعِـدَى وَغَـيْـظُ الْـحَسُودِ

(1) الفنون الأدبية فِي العصر العباسي: ص220.

وَإِذَا كانَ **المتنبّي** فِي النموذجِ السابقِ فَخْرًا لقومِهِ وللعربِ، لأنَّ قومَه فَخْرٌ للعربِ جَميعًا، فإنَّهُ لا يَدَعُ قصيدتَه فِي رثاءِ جَدته دونَ أنْ يَفخرَ بنفسهِ، بل إنّه يَجعلُ مِنْ نفسِهِ مصدرَ فَخْرٍ لِجَدتِه المرثيةِ؛ إذْ يقولُ:

أَلَا لَا أُرِي الأَحْدَاثَ مَدْحًا وَلَا ذَمًّا فَمَا بَطْشُهَا جَهْلًا وَلَا كَفُّهَا حِلْمًا

وَلَوْ لَمْ تَكُونِي بِنْتَ أَكْرَمِ وَالِدٍ لَكَانَ أَبَاكِ الضَّخْمَ كَوْنُكِ لِي أُمًّا

تَغَرَّبَ لَا مُسْتَعْظِمًا غَيْرَ نَفْسِهِ وَلَا قَابِلاً إِلَّا لِخَالِقِهِ حُكْمًا

<u>وَلأبِي العلاءِ المعرِّيِّ</u> فِي الفخرِ قصائدُ أشهرُهَا قَصيدتَانِ، أُولَاهُمَا همزيَّةٌ مَطلعُها:

وَرَائِي أَمَامٌ وَالْأَمَامُ وَرَاءُ إِذَا أَنَا لَمْ تُكْبِرْنِيَ الْكُبَرَاءُ

أمَّا الثانية فلاميةٌ مَطلعُها:

أَلَا فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ مَا أَنَا فَاعِلُ عَفَافٌ وَإِقْدَامٌ وَحَزْمٌ وَنَائِلُ

ومِنْ مبالغاتهِ فِيهَا:

تُعَدُّ ذُنُوبِي عندَ قَوْمٍ كَثِيرَةً وَلَا ذَنْبَ لِي إِلَّا العُلَا والفَضَائِلُ

وَقَدْ سَارَ ذِكْرِي فِي الْبِلَادِ فَمَنْ لَهُمْ بِإِخْفَاءِ شَمْسٍ ضَوْؤُها مُتَكَامِلُ

ويبالغ **أَبُو العلاءِ** فِي بيانِ قِيمتهِ ومنزلتهِ، مبينًا تنافسَ اليومِ والأمسِ، وتَحَاسُدَ وقتَي السحَرِ الأَصيلِ علَى وجودهِ فِي أحدِهما:

وَلِي مَنْطِقٌ لَمْ يَرْضَ لِي كُنْهَ مَنْزِلِي عَلَى أَنَّنِي بَيْنَ السِّمَاكَيْنِ نَازِلُ

يُنَافِسُ يَوْمِي فِيَّ أَمْسِي تَشَرُّفًا وَتَحْسُدُ أَسْحَارِي عَلَيَّ الأَصَائِلُ

<u>1- شِعْرُ السُّخْرِيَةِ:</u>

يُعَدُّ شِعْرُ السخريةِ مِنْ صورِ الشعْرِ الهزْلِيِّ[1]، وهوَ مِنَ الفنونِ الأدبيةِ الجديدةِ فِي العصرِ العباسيِّ، وليسَ المقصودُ بوصفهِ بالجِدةِ أنهُ فَنٌّ لَم يَكن موجودًا فِي التراثِ الشعرِيِّ السابقِ عليهِ،

(1) رأى **<u>د.شعبان مرسي</u>** أن الشعر ينقسم إِلَى قسمين: أولهما الشعر الهزلي، وثانيهما الشعر الجاد، ويحتوي كل قسم على أغراض مختلفة، ويشتمل شعر الهزل على فكاهةٍ وسخريةٍ، ومجون وفُحش، ووصف بخلاء وثقلاء ومغنينَ تافهينَ ومتسولينَ. الفنون الأدبية فِي العصر العباسي: ص173. والشعر الهزلِيّ فنٌّ مِنَ الفنونِ الأدبيةِ التي تَرتبِطُ بالمجتمِع،

وإنَّما المقصودُ أنَّ بذورَه التِي كانتْ موجودةً فِي زَمَنٍ سابقٍ عليهِ قَدْ نَمتْ وَاستوَتْ عَلَى سُوقِها وتَحوَّلَتْ إِلَى صورةٍ مكتملةٍ ساعدَ على اكتمالِها العواملُ الاجتماعيةُ والثقافيةُ فِي هذَا العصرِ؛ فقدْ أسهمَتِ الحياةُ الاجتماعيةُ العابثةُ التِي عاشَها كثيرٌ مِنْ أفرادِ المجتمَعِ العباسيِّ – أسهمَتْ فِي نُزُوعِ النفوسِ إِلَى أساليبِ الفكَاهةِ والضحِكِ والإضحَاكِ، حتَّى فِي مجالسِ الخلفاءِ، ولَا سيَّما مجالسُ السمَرِ.

تَعدَّدتْ موضوعاتُ شِعْرِ الفكاهةِ والسخريةِ فِي العصرِ العباسيِّ، وقَد رأينَا بعضَ نماذجهِ فِي شِعرِ الهجاءِ التهكمِيِّ الساخرِ الذِي لَجَأَ إليهِ كثيرٌ مِنَ الشعراءِ للنيلِ مِن خصومِهم؛ فهوَ أسرَعُ انتشَارًا وأكثرُ تَأثيرًا فِي متلقيهِ، وقدْ رَكَّزُوا فِي معظمهِ علَى إبرازِ العيوبِ الخِلقيةِ كَعظْمِ الأنفِ والصلعَةِ واللِّحَى، والعيوبِ الْخُلقيةِ وأكثَرُها البُخلُ.

فالصلَعُ – مثلًا – منَ العيوبِ التِي يُبتَلَى بِها المرْءُ أحيانًا، تلقفَه شَاعِرٌ سَاخِرُ **كابنِ الرومِي** فقالَ فِي أصْلَعَ:

وَصَلْعَةٍ لِأَبِي حَفْصٍ مُمَرَّدَةٍ كَأَنَّ صَفْحَتَهَا مِرْآةُ فُولَاذِ
تَرِنُّ تَحْتَ الْأَكُفِّ الْوَاقِعَاتِ بِهَا حَتَّى تَرِنَّ بِهَا أَكْنَافُ بَغْدَاذِ

وَلابْنِ الرومِيِّ كذلكَ بيتَانِ يَرسمُ فيهمَا صورةً لأحدَبَ، فيقولُ:

قَصُرَتْ أَخَادِعُهُ وَغَاصَ قَذَالُهُ فَكَأَنَّهُ مُتَرَبِّصٌ أَنْ يُصْفَعَا
وَكَأَنَّمَا صُفِعَتْ قَفَاهُ مَرَّةً وَأَحَسَّ ثَانِيَةً لَهَا فَتَجَمَّعَا

وَقَدْ بلغَ ابنُ الروميِّ فِي التهكمِ والسخريةِ مَبلغًا عَظيمًا؛ حتَّى صارَ الناسُ يتحامونَهُ مَخافَةَ لِسانِهِ وفُحشِهِ[1]؛ إذْ كَان قَديرًا علَى تَصوير العيوبِ، وإظهارِ المقابحِ والعاهاتِ الجِسمية فِي صورةٍ ساخرةٍ،

وهوَ الشِّعرُ الذِي يَميلُ ناظِمه إِلَى الفكاهةِ والسخرية ويهدف فِي كثير منه إِلَى إضحاك المتلقي، ويعكس ما أصاب المجتمع من تطور وتجديد، ومن شعرائه: بشار بن برد، وأبو دلامة، وابن الرومي وأبو نواس.

(1) حسبكَ من سلاطةِ لسانِ ابن الروميِّ أن كانَ سببًا في مقتله؛ فقدْ عاصرَ ابنُ الروميِّ ثمانيةً مِنَ الخلفاءِ العباسيينَ، ورُغمَ طُول هذهِ المدةِ، ورُغْمَ إجادتِهِ الشعْرَ؛ فإنَّه كانَ مَنبوذاً مِنَ أولئكَ الخلفاءِ، لَا يُقبَلُ لَه شِعرٌ، وَلَا يَغتَرِفَ مِنْ عطايَا

وَمِنْ ذلكَ مَا هجَا بِـهِ عَـمْـرًا النصرانِـيّ الذِي كانَ حَاجبًا للوزيرِ، فكانِ يَمنَعُ ابنَ الرومِيِّ دائمًا منَ الدخولِ علَـى الوزيرِ، فهجاهُ ابنُ الرومِـي أقبحَ هجَاءٍ، حيثُ يَـقولُ:

يَـا عَمْـرُو سَالَـتْ بِـكَ السُّيُـولُ لِأُمِّـكَ الْـوَيْـلُ وَالْـهُـبُـولُ
وَجْـهُـكَ يَا عَـمْـرُو فِـيهِ طُـولُ وَفِـي وُجُـوهِ الكِـلَابِ طُـولُ
فَـأَيْـنَ مِـنْكَ الْـحَـيَاءُ قُـلْ لِـي يَـا كَـلْـبُ وَالكَـلْـبُ لَا يَـقُولُ
مَـقَـابِـحُ الكَلْبِ فِـيـكَ طُـرًّا يَـزُولُ عَـنْـهَا وَلَا تَـزُولُ
وَفِـيهِ أَشْيَـاءُ صَـالِـحَاتٌ حَـمَـاكَـهَا اللهُ وَالـرَّسُـولُ
فِـيهِ هَـرِيـرٌ وَفِـيـهِ نَـبْـحٌ وَحَـظُّـهُ الـذُّلُّ وَالْـخُـمُولُ
والكَـلْـبُ وَافٍ وَفِـيكَ غَـدْرٌ فَـفِـيـكَ عَـنْ قَـدْرِهِ سُـفُـولُ
وَقَـدْ يُـحَـامِـي عَـنْ الْـمَوَاشِـي وَمَـا تُـحَـامِـي وَلَا تَـصُـولُ
وَأَنْـتَ مِـنْ أَهْـلِ بَـيْـتِ سُـوءٍ قِـصَّـتُـهُـمْ قِـصَّـةٌ تَـطُـولُ
وُجُـوهُـهُـمْ لِلْـوَرَى عِـظَـاتٌ لَـكِـنَّ أَقْـفَـاهُـم طُـبُـولُ

وَمِنْ نَماذجِ شِعرِ الإضحاكِ مَارُوِيَ عَنْ **بَشَّار بن بردٍ** الذِي فقَـدَ حِـمَارَهُ، فأصبحَ يَـومًا مَهمومًا مَغمُومًا، فسأله الناسُ عن سببِ همِّـهِ وغَمِّـهِ، فقالَ: إنَّ حِـمَارِي ماتَ وقَـد رأيتُـهُ فِـي المنامِ فقلتُ لَـهُ: لِمَ مِتَّ؟ ألَـمْ أكنْ أُحسنُ إليكَ؟! فقالَ:

سَـيِّـدِي خُـذْ بِـي أَتَـانًـا عِـنْـدَ بَـابِ الْأَصْبَهَـانِـي

الخلفاءِ شَيئًا، فما كانَ منهُ إِلَّا أنِ استغلَّ شِعـرَهُ فِـي هجاءِ كُـلِّ مَنْ حولَـهُ، وقـدْ قالَ المرزبَانِـيُّ عَنـهُ: "لَا أَعلَـمُ أَنَّـهُ مَـدَحَ أَحَـدًا مِنَ رَئيسٍ أو مَرؤوسٍ إِلَّا وَعادَ إليهِ فهجاهُ، ولذلِكَ قـلَّتْ فَـائدتُـهُ مِنْ قَولِ الشعْـرِ وتَـحامَاهُ الرؤَسَاءُ".

وقَـدْ كانَ التخلصُ مِنَ **ابن الـرومِيِّ** مَطلبًـا للعديدِ مِنَ الوزراءِ والـحُكامِ، حتَّى يَتخلصُوا مِنْ لسانِهِ الحادِّ المسلَّطِ عَليهِم، فَما كانَ مِنْ وزِيرِ المعتضِدِ القاسمِ بْـنِ وَهْبٍ إِلَّا أنْ خَطَّطَ لِقتْـلِ **ابنِ الـرُّوميِّ** مسمُومًا خَوفًا مِنْ أنْ يُصيبَه لسانُـهُ؛ فَـدَسَّ السمَّ فِـي الحلْوَى المقدمَةِ لابنِ الـرُّوميِّ فِـي إِحْدَى المجالسِ عَنْ طَـريقِ شَخْصٍ يُـدعَى ابنَ الفـرَّاشِ، ثُـمَّ تناولَ ابنُ الـرُّومِـيِّ السمَّ، وبَـدَأَ يَسرِي فِـي جَسدِهِ، ويُـحِـسُّ بِـهِ ابنُ الروميِّ فقررَ أنْ يَتـرُكَ المجلِسَ، فسألَـهُ الوزِيرُ ساخِرًا: إِلَـى أينَ أنتَ ذَاهِبٌ؟ فأجابَـهُ: إِلَى المكانِ الذِي بَعثْـتَـنِي إليهِ! فقالَ لَـهُ الوزيرُ: سَلِّم علَى وَالدِي، فأجابَـهُ ابنُ الرومِـيِّ: لَيسَ طَريقِي النارَ! ثُـمَّ تُـوفِّـيَ، لِيثبِتَ للجميعِ أنَّ لِسانَـهُ لَا يَكِـلُّ مِنَ التسلُّطِ علَى الآخَـرِينَ، حتَّى عندَ آخِـرِ أنفاسِهِ.

تَيَّمَتْنِي بِبَنانٍ وَبِدَلٍّ قَدْ شَجَانِي
تَيَّمَتْنِي يَوْمَ رُحْنَا بِثَنَايَاهَا الْحِسَانِ
وَبِغُنْجٍ وَدَلَالٍ سَلَّ جِسْمِي وَبَرَانِي
وَلَهَا خَدٌّ أَسِيلٌ مِثْلُ خَدِّ الشَّيْفَرَانِي
فَلِذَا مِتُّ وَلَوْ عِشْـ ـتُ إِذَنْ طَالَ هَوَانِي

فقدْ ماتَ حِمارُ **بشارٍ** مِنَ العِشْقِ والحبِّ، تَيَّمهُ جَمال حِمَارةٍ مَربوطةٍ ببابِ الأصبهانِي وبَراهُ هواهَا حتَّى مرضَ وماتَ ومَا فَازَ بوصالِهَا، وحِينَ سُئلُ **بشارٌ**: ما الشيفرَانِ؟ قَالَ: ما يُدرِيني! هذَا مِنْ غَريبِ الحمارِ، فإذَا لقيتَهُ فاسألْهُ[1].

وَمِنَ الشعرَاءِ الذِينَ وُهِبُوا القدرَةَ علَى الضحكِ والإضحاكِ فِي العصرِ العباسيِّ الشاعِرُ **أَبُو دُلامةَ**، حتَّى إنَّهُ يَضحَكُ ويُضحِكُ مِن نفسِهِ؛ فقَدْ وَلَدَتْ لَهُ زَوجتُهُ بِنْتًا فَاستقبلَها أبوهَا خَيرَ استقبالِ أبٍ بابنتِهِ، وَحَوَّلَ الموقفَ إِلَى هَزْلٍ يَبعَثُ المتلقيَ علَى الضحِكِ، فقالَ:

فَمَا وَلَدَتْكِ مَرْيَمُ أُمُّ عِيسَى وَلَمْ يَكْفُلْكِ لُقْمَانُ الْحَكِيمُ
وَلَكِنْ قَدْ تَضُمُّكِ أُمُّ سُوءٍ إِلَى لَبَّاتِهَا وَأَبٌ لَئِيمُ

وَظَّفَ الشعراءُ الساخرُونَ الصورَ البلاغيةَ كَما رَأينَا والإمكانَاتِ اللغويةَ فِي أسلوبٍ مَرِحٍ للوصولِ إِلَى مَا يُريدونَ مِنْ إيلامِ المهجوِّ، أوْ إضحاكِ المتلقِّي، أمَّا الإمكاناتُ اللغويةُ فقَدْ وظَّفَ منهَا **أبو نُواسٍ** النقْطَ والتصحيفَ فِي هجاءِ **أبان اللاحقِي** فقَالَ:

صَحَّفَتْ أُمُّكَ إِذْ سَمَّتْكَ فِي الْمَهْدِ أَبَانَا
صَيَّرَتْ "بَاءً" مَكَانَ "التَّاءِ" تَصْحِيفًا عِيَانَا
قَدْ عَلِمْنَا مَا أَرَادَتْ، لَمْ تُرِدْ إِلَّا "أَتَانَا

(1) انظر الأغاني: 3/ 232.

التطور والتجديد فِـي الأداء الفني

ملامح التطور والتجديد فِـي الأداء الفن

التطور والتجديد فِـي بناء القصيدة.

التطور والتجديد فِـي المعاني والأفكار.

التطور والتجديد فِـي الألفاظ والأساليب.

الطور والتجديد فِـي موسيقا الشعر.

1 – التطورُ والتجديدُ فِـي بناءِ القصيدةِ:

ظلَّ للقصيدةِ العربيةِ هيكلٌ بِنائِـيٌّ ذُو هندسَةٍ خاصةٍ ونسَقٍ مُلتزَمٍ، التزمَتْ بِهِ وحَافظَتْ عَليهِ فِـي العصـرِ الجاهليِّ والإسْلاميِّ والأُمويِّ، يتصدَّرُ هَـذَا الهيكَلَ البنَائيَّ **مقدمةٌ** طلليةٌ أو غزليةٌ أو وصفيةٌ أو بُـكائيةٌ عَلَى تَولِّـي شبابٍ أو رَحيلِ حَبيبٍ، تُـتْـبَعُ تلكَ المقدمةُ **بمدخَلٍ** يَـصفُ فيه الشاعرُ عناءَ الرحلةِ أو الراحلَـةِ، يُمهِّدُ بِهِ **لـموضوعِهِ** الرئيسِ الذِي يَأتِـي بَعده، ثُم **خَـاتِـمَـةٌ** لَا تَخلو غالبًا مِن تلميحٍ أو تصريحٍ بطلبِ النوالِ.

وقَـدْ حافظتِ القصيدةُ العباسيةُ الطويلةُ وخاصةً المدحيةَ مِنها علَى هَذَا الإطارِ أو البناءِ، أمَّا المقطوعاتُ الشعريةُ القصيرةُ التي احتلَّتْ مَكانًا مَلحوظًا مِنْ عَطَاءِ ذَلِكَ العصْـرِ الشعريِّ فقدِ اقتصرَ فيها الشاعرُ عَلى ما يَـعِنُّ لَـهُ مِن خاطرةٍ أو مَعنى طَريفٍ دُونَ تَجاوزِهِ إِلَـى شأنٍ آخَرَ.

وَمِنْ ثَـمَّ أثَـارَ هَـذَا التنوعُ فِـي بناءِ القصيدةِ العباسيةِ قَضيتينِ بَـارزتينِ هُـمَا مَا اصطُلِحَ عَلَى تَسميتِهما بعمودِ الشعرِ، والمقدمةِ الطللية.

عَمُودُ الشِّـعْرِ(1):

المقصودُ بعمودِ الشعرِ تِلكَ التقاليدُ أوِ الأُصولُ الفنيةُ التِي أقَـامَ علَـى أساسِها الشعراءُ القدمَاءُ قصائدَهم، وَوَرِثَها الشعراءُ المحدثُونَ مِنَ الشعرِ القديمِ. وقَـدْ حَرصَ بعضُ الشعراءِ عَلى الالتزَامِ بتِلكَ التقاليدِ والأصولِ الموروثةِ، فِـي حِينَ حَاولَ البعضُ تقديمَ مجموعةٍ مِنَ التقاليدِ والأصولِ المنبثقَةِ عَنِ

---

(1) وضح **المرزوقي** فِـي مقدمة شرحه ديوان الحماسة عناصر عمود الشعر، فكانت سبعةً، هي:

1 – شَـرفُ المعنَـى وصِحَّـتُـه.

2 – جَـزالَـةُ اللفظِ واستقامتُـه.

3 – الإصابَـةُ فِـي الـوَصْفِ.

4 – الْـمقَـاربَـةُ فِـي التشْبيهِ.

5 – التحَامُ أجْـزاءِ النظْمِ عَلَـى تَـخيرٍ مِـنْ لَـذيذِ الوزْنِ.

6 – مناسبَـةُ المستعَارِ مِنهُ للمستعَارِ لَـهُ.

7 – مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائها للقافية.

العصـرِ وذَوقِـهِ. ومِنْ ثَـمَّ وُجِـدَ فريقانِ إزاءَ تلكَ التقاليدِ، هما **المحافظونَ** وعلَى رأسِهم البُحتريُّ، و**المجدِّدونَ** وَيتزعَّمهم أبُـو تمامٍ.

فقَـدْ تَـمسَّكَ **البحتريُّ** بالتقاليدِ العربيةِ الموروثَـةِ فِـي بناءِ القصيدَةِ وإحكَامِ نَسْجِهَا مِنْ خِلَالِ انتقاءِ الألفاظِ القويةِ الجزلةِ والتركيبِ المحكَمِ ومجاوبَـةِ الألفاظِ للمعَانِـي والصورةِ التقليديةِ والجرْسِ العالِـي والتخلُّصِ التقليدِيِّ، سَاعدَه على ذَلِكَ عَربيتُهُ الخالصةُ ونشأتُـهُ البدويةُ وقلةُ بضاعتهِ مِنَ الثقافَاتِ الوافدَةِ وضُروبِ المـعرفةِ العِلميةِ.

أمَّا **أبُـو تمامٍ** فقَدْ نَزعَ هَذَا المنزعَ التجْدِيدِيَّ انطِلَاقًا مِنَ اختلَافِ مَفهومِ الشعْرِ وغَايتهِ عِندَهُ عَنْ غَيرِهِ مِنَ الشعرَاءِ؛ إذْ يَرى أبو تمام أنَّ الشعْـرَ صناعةٌ عقليةٌ يَمتزِجُ فيهَا العقلُ والشعُورُ أو الفكرُ والعاطفَـةُ، وفِـي سبيلِ تحقيقِ تلكَ المزاوجَةِ كَانَ يُحمِّل اللغةَ فِـي كَثيرٍ منَ الأحيانِ أكثـرَ مِـمَّا تُـطيقُ من المعَانِـي فيُصيبُها الغمُوضُ ويَصعُبُ فهمُها علَى الذينَ لَـمْ يَصلوا فِـي ثقافتِهم إِلَـى مَا وَصَلَ إليهِ.

وَإِذَا كانَ الامتزَاجُ بينَ الفِكرِ والعاطفةِ يُميز مَفهومَ الشعرِ عندَ أبي تمامٍ فإنـهُ يكتبه للخاصَّةِ لَا العامةِ، والخاصةُ عِندهُ هِيَ الطبقةُ المثقفةُ المستنيرةُ الواسعَـةُ الاطلاعِ. ومِنْ ثَـمَّ حفلَ شعرهُ بضُروبِ البديعِ وألوانِه، واكتظَّ بالاستعارَاتِ الطريفَةِ والتشبيهَاتِ الغريبَةِ، وكَثُـرَتْ فيهِ الإشارَاتُ التاريخيةُ والعلميةُ.

المقدمَـةُ الطلليةُ:

الحرصُ على المقدمةِ الطلليةِ جزءٌ مِنَ الحرصِ عَلى الموروثِ كلهِ، لكنْ دعَتْ **أسبابٌ فنيةٌ** وأُخْـرى **شُعوبيةٌ** إِلَى نفورِ بعضِ الشعَراءِ مِن ذَلِكَ التقليدِ المورُوثِ، إذْ رأوْا فِي الـبَدءِ بالوقوفِ علَى الأطلالِ وبكاءِ الديارِ والاستبكَاءِ دُونَ أنْ يَـرْتبِطَ ذَلِكَ بِتجْـرِبَةٍ فِعليةٍ أوْ إحساسٍ حقيقيٍّ تكرارًا غيرَ صادرٍ عَنْ ضرورةٍ فنيةٍ أو عاطفةٍ صادقةٍ أو معايشةٍ حقيقيةٍ. أمَّا الأسبابُ الأخرَى فتتمثلُ فِي حِـرْصِ بعضِ شعراءِ الموالِـي – كما درسنَا – عَلى تحقيرِ حياةِ العربِ والسخريةِ مِن ماضِيهم وتراثِهم وعادَاتِهم وتقاليدِهِم. وقدْ عبرَ أبو نواسٍ زعيمُ هَذَا الفريق شعرًا عن الأسبابِ الكامنةِ وراءَ النفورِ مِنَ المقدمةِ الطلليةِ والهجومِ عليها.

وقد حُسمَتِ المعركةُ لصالحِ الاتجاهِ المحافظِ، معَ وجودِ بعضِ التأثيرِ فِـي القصيدَةِ العربيةِ ممَّـا أدَّى إِلَـى تطورِها، تَـمَثَّلَ ذَلِكَ في لَفتِ أنظارِ الشعراءِ إِلَـى ضَـرورةِ مراجعَةِ التراثِ فِي شَأْنِ مقدمَةِ القصيدةِ بصفةٍ عامةٍ، معَ تطويرِ مقدمةِ القصيدةِ بالحذفِ والإضافةِ لتصبحَ أكثرَ تجسيدًا لعواطفِهم وتجارِبِهم، فضلًا عنِ ابتكارِ مقدماتٍ جديدةٍ وليدةِ ظروفِ العصـرِ – كَمَا أوردتُ فِي الحديثِ عن غرضِ المدحِ – كالمقدمةِ الخمريةِ والمقدمةِ اللاهيةِ ومقدمةِ حديثِ الطبيعةِ ومقدمةِ شكوى الدهرِ وسُوءِ الزمانِ.

2– التجديدُ فِـي المعانِـي والأفكَارِ:

رُبَّـما لَا تَـكونُ المعانِـي والأفكارُ ذاتُها جَدِيدَةً، وَإِنَّـما تَتجدَّدُ بالصورَةِ التِي تُصَاغُ بِـهَا، وقَدِيمًا قالَ **الجاحِظُ**: "... ذَهَبَ الشيخُ إِلَى استحسانِ المعَانِي، والمعَانِي مَطـرُوحَةٌ فِي الطريقِ، يَعرِفُها العجَمِيُّ والعربَـيُّ والبدويُّ والقـرَوِيُّ والمـدَنِـيُّ، وَإِنَّـمَا الشأنُ فِـي إقامةِ الوزنِ، وتَـخيُّـرِ اللفظِ، وسهولَةِ المخْـرجِ، وكثرةِ الماءِ، وفِـي صِحَّةِ الطبعِ، وجَودَةِ السَّبْكِ، فَـإِنَّـمَا الشعْـرُ صِناعةٌ، وضَـرْبٌ مِنَ النسْجِ وَجِنسٌ مِنَ التصْويرِ"[1].

وَقبلَ الجاحظِ قالَ **عنتَـرَةُ بنُ شَدَّاد**:

هَـلْ غَـادَرَ الشُّـعَـرَاءُ مِـنْ مُـتَـرَدَّمِ أَمْ هَلْ عَـرَفْـتَ الـدَّارَ بَعْـدَ تَـوَهُّـمِ؟

كَما قالَ **زهيـرُ بنُ أَبِـي سُلْمَي**:

مَـا أَرَانَـا نَـقُـولُ إِلَّا مُـعَارًا[2] أَوْ مُـعَادًا مِـنْ قَـوْلِـنَا مَـكْـرُورًا

وَيُـؤكِّـدُ هذَا التوارُدَ **أَبُـو عَمْـرو بنُ العلاءِ** لَـمَّا سُئِلَ: أرأيتَ الشاعِرَيْنِ يَتفقَانِ وَيتوَاردَانِ فِـي اللفظِ، لَـمْ يَلْـقَ واحدٌ مِنهُما صَاحِبَـهُ، وَلَـمْ يَسْمَعْ بِشِعْـرِهِ؟ فأجابَ قَائِـلًا: "الشعْـرُ جَادةٌ، وَرُبَّـمَا وَقَـعَ الحافِـرُ علَـى الحافِـرِ"[3]

وَمُـؤَدَّى ذَلِكَ أنَّ تجديدَ الشعرَاءِ يَكونُ فِي الصورةِ الشعريَّـةِ التي تُـؤدَّى بها التجربةُ الفنيةُ، وقد بَرعَ الشعراءُ العباسيونَ فِي التصويرِ الشعريِّ براعةً مشهودةً، فأعمَلُوا فكرَهم وافتنُّـوا فِـي استنبَاطِ المعَـانِـي

(1) الحيوان: 3/ 131.

(2) وفي رواية: **رَجِـيعًا**.

(3) بدوي طبانة: السرقات الأدبية دراسة في انتحال الأعمال الأدبية وتقليدها، دار الثقافة بيروت، لبنان، 1986، ص 4.

الدقيقَـةِ، وأكثَـرُوا مِـنَ المعاني الطريفَـةِ، حتَّى غَدتْ القصَائِـدُ عند بعضِهم معرضًا للمعَانِـي الدقيقةِ والطريفَةِ، ومِنْ هؤلَاءِ **ابنُ الروميِّ** الذي أَبدعتْ مخيلَته كَثيرًا مِنَ المعانِـي والصورِ الطريفةِ الناتجةِ عن تأملٍ ودقةِ اختيارٍ، فهوَ يُـصوِّرُ وَقعَ المحبوبةِ علَى نفسِه حالَ إقبالِها وإعراضِها، وتأثيرَ ذَلِكَ علَى قلبِهِ، وتَألُّـمَـهُ الدائمَ فِـي الحالينِ، ويشبهُهُ بوقعِ السهامِ فِـي القلبِ؛ فالمـرءُ يتألَّـمُ حالَ وقوعِ السهمِ وعِندَ نَـزْعِهِ:

نَـظَـرَتْ فَـأَقْصَدَتِ الْـفُـؤَادَ بِـلَـحْظِـهَا ثُـمَّ انْـثَـنَتْ عَـنْـهُ فَـظَـلَّ يَـهِيمُ[1]

وَيْـلَاهُ إِنْ نَـظَـرَتْ وَإِنْ هِيَ أَعْـرَضَتْ وَقْـعُ السِّهَامِ وَنَـزْعُـهُنَّ أَلِـيمُ[2]

ومِنَ افتنَانِ الشعرَاءِ فِـي الصورَةِ الشعريَّـةِ وطرافَـةِ المعنَى الذي تُـجسِّدُه، تفسيرُ أبي تمامٍ لتأثيرِ الحسدِ والحاسِدِ عَلى المحسُودِ، حتَّى يتحوَّلَ مِن نقمةٍ تُسبِّبُ الشـرَّ إِلَـى نِعمةٍ تُساعِدُ عَلى نَشـرِ الفضيلةِ:

وَإِذَا أَرَادَ اللهُ نَـشْـرَ فَـضِيلَـةٍ طُـوِيَتْ أَتَـاحَ لَـهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلاَ اشْتِعَالُ النَّارِ، فِـيمَا جَـاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْـرَفُ طِيبُ عَـرْفِ العُودِ

وكذلك قوله فِـي فتح عموريةَ:

وَبَـرْزَةُ الْـوَجْـهِ قَـدْ أَعْـيَتْ رِيَاضَتُـهَا كِسْرَى وَصَدَّتْ صُدُودًا عَنْ أَبِي كَـرِبِ

بِـكْـرٌ فَـمَا افْـتَـرَعَـتْهَا كَـفُّ حَـادِثَـةٍ وَلَا تَـرَقَّـتْ إِلَـيْهَا هِـمَّـةُ النُّـوَبِ

مِنْ عَـهْدِ إِسْكَنْـدَرٍ أَوْ قَـبْـلَ ذَلِكَ قَـدْ شَابَتْ نَـوَاصِي اللَّـيَالِي وَهْيَ لَـمْ تَـشِبِ

حَـتَّى إِذَا مَـخَـضَ اللهُ السنينَ لَـهَا مَـخْـضَ الْـبَخِيلَـةِ كَانَتْ زُبْـدَةَ الْـحِقَبِ

حيثُ يقولُ التبريزيُّ عنِ البيتِ الأخيرِ: "هذهِ الاستعارةُ لَـمْ تُستعمَلْ قَبلَ الطائِي، وأصلُ (الْـمَخْضِ) فِـي اللَّبنِ، يُـقالُ مَـخَضْتُ الوَطْبَ مَـخْضًا إِذَا حَـرَّكْـتَه لِـتُخرِجَ زُبْـدَهُ، وَجعلَـهُ مَـخْضَ البخيلةِ؛ لأنَّها أَشَدُّ اجْتِهادًا مِنَ السَّمْحَةِ، فَـهِيَ تُطِيلُ مُـدَّةَ الْـمَخْضِ. وَمَنْ رَوَى (مَـخْضَ الْـحَلِيبَةِ)

---

(1) **أَقْصَدَ السهمُ:** أَصاب، **أَقْصَدَ** فلاناً: طعنه فلم يُخْطِئ مقاتله. عضَّتْه الحيَّة فأقصدته، **واللحْظُ:** باطن العين والجمع لحاظ وألحاظ، **انْثَنَت عنه:** انْصَرَفَتْ، **يهيم: هام** الشَّخصُ فِـي الأمر: تحيَّر فيه واضطرب وذهب كلَّ مذهب، تخبَّط على غير هدى، والمراد: يقاسي لوعة الهجر والشوق.

(2) **وَيْلٌ:** كلمة مثل وَيْحٍ إلا أنها كلمة عذاب يُقال وَيْلَه ووَيْلَك ووَيْلِي وفِـي الندبة: وَيْلاَه،

أرادَ مَا حُلِبَ مِنَ اللَّبَنِ، وَالروَايَـةُ الأُولَى أَجْودُ. يَقولُ: جَـمَعَ خَيراتِـهَا كَما يُجمَعُ خيـرُ مَا فِـي اللَّبنِ بالمخْضِ، وَمَنْ روَى (مَـخْضَ الثَّميلةِ) – وهوَ مَاءُ الكَـرِشِ – أرادَ: حَتى إذَا جَـمعَ الله خَيراتِ السِّنينَ وأظهرَهَا كَما يَظهرُ اللبَنُ مِنَ الثميلَةِ، كَمَا قالَ تعالَى: ﴿**مِنْ بَيْنِ فَـرْثٍ وَدَمٍ لَبَـنًا خَالِصًا**﴾، فَصَارتْ هَذهْ البلْـدَةُ زُبدَةَ السِّنينَ أَتَـتْهمُ الكُـرْبةُ، والحِقَب جَـمعُ حِقْبَـة وهيَ السَّنَـةُ، وقيلَ الحِقبةُ مِنَ الدهرِ: بُـرْهةٌ غيرُ محدودةٍ إلا أَنَّها زَمَنٌ يَطولُ، ومَعنى البيتِ: أنَّ هَذِهِ المدينةَ لَـمَّا أَغْفلتْهَا السُّنُونَ حَتى زادتْ وَحَسُنَتْ فصَارَت زُبدةً أتاهُم المعتصمُ ففتَحَهَا"[1].

وَمِنَ استيحاءِ الشعراءِ موقفَ الموتِ وتأملِـهِ، والافتنانِ فِـي التعبيرِ عن معانيهِ تَصويرُ أحدِ الشعراءِ لِلمصلوبِ، والتفافِ الناسِ حَولَـهُ، فَـقَـدْ صَوَّرَهُ مِن زاويةٍ تَـختلِفُ الاختلافَ كُلَّـهُ عما يَدورُ فِـي الأذهانِ فِـي هَذَا الموقفِ، فيفسرُهُ بقولِـهِ:

عُـلُـوٌّ فِـي الْـحَياةِ وَفِـي الْـمَـمَاتِ لَـحَـقٌّ أَنْـتَ إِحْـدَى الْـمُعْجِـزَاتِ
كَـأَنَّ الـنَّاسَ حَـوْلَكَ حِـينَ قَـامُوا وُفُـودُ نَـدَاكَ أَيَّـامَ الصِّـلَاتِ
وَلَـمَّا ضَـاقَ بَـطْـنُ الأَرْضِ عَـنْ أَنْ يَـضُـمَّ عُـلَاكَ مِـنْ بَـعْـدِ الْـوَفَـاةِ
أَصَـارُوا الْـجَـوَّ قَـبْـرَكَ وَاسْتَـعَاضُوا عَـنِ الأَكْـفَـانِ ثَـوْبَ السَّافِـيَاتِ[2]

لَـمْ يَقتصـرِ التجديدُ فِـي معانِي الشعرِ العباسيِّ وأفكارِهِ علَى الافتنانِ فِـي الصورةِ الشعريةِ، وإنما تحققَ فِـي جوانبَ عديدةٍ منه؛ حيثُ اجتمعَتْ بلاغَـةُ العربِ وأمثالُهم المأثورةُ إِلَـى حِـكَمِ الفُـرسِ وفلسفةِ اليونانِ وفِكرِ المتكلمينَ وعِظةِ العَابدينَ والزاهدينَ، فكانَ ضَرْبُ المثَـلِ وبراعةُ التعليلِ، واستخدامُ البراهينِ العقليةِ فِـي تفسيرِ الأفكارِ وتجسيدِ المعانِـي.

أمَّا **ضَرْبُ الْـمَثَلِ وبراعةُ التعليلِ** فكانَ صَدًى للثقافاتِ المتنوعَةِ وازدهارِ الحركَـةِ العقليـةِ فِـي العصـرِ العباسيِّ، ومِنْ ذَلِكَ تصْويـرُ **أَبِـي تمامٍ** لفكرةِ "اغتَـرِبْ تَتجَـدَّدِ" مِن خلالِ التمثيلِ والتعليلِ؛ حيثُ ضربَ شُروقَ الشمسِ وغُـرُوبَها مَثلًا لتأثيـرِ تطبيقِ هذهِ الفكرةِ معَ الناسِ، فيقولُ:

(1) ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي (ذخائر العرب)، تحقيق محمد عبده عزام، دار المعارف – القاهرة، الطبعة الخامسة، المجلد الأول، ص 49، 50.

(2) **السافياتُ:** الرياح، و السافية من الرياح: التي تحمل الترابَ وتنثره.

وَطُـولُ مُـقَـامِ الْـمَـرْءِ فِـي الْـحَـيِّ مُـخْـلِـقٌ لِـدِيبَاجَـتَـيْـهِ فَـاغْـتَـرِبْ تَـتَجَـدَّدِ
فَـإِنِّـي رَأَيْتُ الشَّمْسَ زِيـدَتْ مَـحَـبَّـةً إِلَى الـنَّاسِ أَنْ لَـيْسَتْ عَلَيهِـمْ بِسَـرْمَـدِ

وَقَـريبٌ منهُ قولُ الإمامِ **الشافعيِّ**[1] - وهوَ مِنْ رجالِ العصـرِ العباسي كذلكَ - يَـدعُو إِلَـى السفـرِ، وَيُـحبِّبُ الاغتـرابَ لِـمَا فيهِ مِنْ تَـجديدٍ، وَإِذَا كانَ **أبو تمام** قَد ضـربَ الشمسَ مثالًا للتغـرُّبِ والتجديدِ؛ فإنَّ الإمامَ الشافعِيَّ قد زادَ عليهِ خَـمسَةَ أمثلةٍ أخـرَى، وهي (تجدد الماء بسياحته أو سيلانه، - الأسد - السهم - التبر - العود)، فَـزادَ المعنَى تأكيدًا:

مَا فِـي الْـمُقَامِ لِـذِي عَـقْلٍ وَذِي أَدَبِ مِنْ رَاحَةٍ فَـدَعِ الأَوطَـانَ وَاغْـتَـرِبِ
سَافِـرْ تَـجِـدْ عِـوَضًا عَمَّـنْ تُـفَارِقُـهُ وَانْـصَبْ فَـإِنَّ لَـذِيذَ العَـيْشِ فِـي النَّـصَبِ
إِنِّـي رَأَيْـتُ وُقُـوفَ **الْـمَاءِ** يُـفْسِدُهُ إِنْ سَـاحَ طَـابَ وَإِنْ لَـمْ يَـجْرِ لَـمْ يَـطِـبِ
وَ**الأُسْـدُ** لَـوْلَا فِـرَاقُ الْـغَابِ مَـا افْـتَـرَسَتْ وَ**السَّهْـمُ** لَولَا فِـرَاقُ القَـوْسِ لَـمْ يُـصِبِ
وَ**الشَّمْسُ** لَـوْ وَقَـفَتْ فِـي الفُلْـكِ دَائِـمَـةً لَـمَـلَّـهَا الـنَّاسُ مِـنْ عُجْـمٍ وَمِـنْ عَـرَبِ
وَ**الـتِّـبْـرُ** كَالـتُّـرْبِ مُلْـقًى فِـي أَمَـاكِـنِـهِ وَ**الْـعُودُ** فِـي أَرْضِـهِ نَـوْعٌ مِـنَ الْـحَطَبِ
فَـإِن تَـغَـرَّبَ هَـذَا عَـزَّ مَـطْـلَـبُـهُ وَإِنْ تَـغَـرَّبَ ذَاكَ عَـزَّ كَـالـذَهَـبِ

لكنْ يبقى أن **أبا تمامٍ** قدْ غَـرِيَ بضربِ الأمثالِ في شِعرِهِ، ولَه فِـي ذلكَ أقوالٌ كثيرةً، ومِنْها أَنَّه مَدَحَ الأَميرَ أَحْمَـدَ بنَ الْمُعْتَصِم بقصيدتِه السِّيْنِيَّـةِ، ومطلعُها:

مَـا فِـي وُقُـوفِـكَ سَـاعَـةً مِـنْ بَـاسِ نَـقْضِـي ذِمَـامَ الأَربُـعِ الأَدْرَاسِ

فلـمَّا بلغَ قولَـهُ فيهَا:

---

(1) أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعيّ المطَّلِبيّ القرشيّ (150-204هـ / 767-820م) هو ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي، ومؤسس علم أصول الفقه، وهو أيضاً إمام في علم التفسير وعلم الحديث، وقد عملَ قاضياً فعُـرِفَ بالعدلِ والذكَاءِ. وإضافَـةً إلى العلوم الدينية، كان الشافعيُّ فَصِيحاً شاعراً، ورَامياً مَاهراً، ورحّالاً مسافراً. أكثـرَ العلماءُ مِنَ الثناءِ عليه، حتى قال فيه الإمام أحمد: «كان الشافعيُّ كالشمسِ للدنيَا، وكالعافيةِ للناس، وقيل بأنه إمامُ قريش الذي ذكرهُ النبي محمدٌﷺ بقوله: "عالِـمُ قُـريشٍ يَملأُ الأرضَ عِلماً".

أَبْـلَـيْتَ هَـذَا الْـمَجْـدَ أَبْـعَدَ غَـايَـةٍ فِـيْـهِ، وأَكْـرَمَ شِيْمَـةٍ ونِـحَاسِ

إِقْـدَامَ عَمْرٍو، فِـي سَمَاحَـةِ حَاتِـمٍ فِـي حِـلْمِ أَحْـنَـفَ، فِـي ذَكَـاءِ إِيَـاسِ

وَكانَ **أبو يُوسُفَ يَعْقُوبُ بنُ الصباحِ الكِنْدِيّ** الفيلسوفُ حاضِـرًا؛ فقال – مُخاطبًا **أبا تَـمّام** –: "الأَميرُ فوقَ مَنْ وَصَفْتَ.... أَتُشبِّـهُـهُ بأَجلَافِ العَـرَبِ؟". فأَطْـرَقَ **أبو تَـمّام** هُنَيْهَـةً، ثُـمّ ارْتَـجَلَ قَائلاً:

لَا تُـنْـكِـرُوا ضَـرْبِـي لَـهُ مَـنْ دُوْنَـهُ مَـثَلاً شَـرُوداً فِـي النَّـدَى وَالْـبَاسِ

فَـالله قَـدْ ضَـرَبَ الأَقَـلَّ لِـنُـوْرِهِ مَـثَلاً مِـنَ الْـمِشْكَاةِ والنِّـبْـرَاسِ

فقال الوزير للخليفة: أيَّ شَيءٍ طلبَـهُ فأعْطِهِ، فإنَّـهُ لَا يَعِيشُ أكثَـرَ مِنْ أربعينَ يومًا، لأَنَّـهُ قَـدْ ظَـهرَ فِـي عَينيْـهِ الـدَّمُ مِنْ شِدَّةِ الفِـكْـرِ، وَصَاحِبُ هذَا لَا يَعِيشُ إِلَّا هذَا القَدْرَ. فقالَ لَـهُ الخليفةُ: مَا تَشتَهِـي؟ قالَ: أُرِيدُ الـمَوْصِلَ، فأعطاهُ إياهَا، فتوجَّهَ إليهَا، وبَقِيَ هذهِ المدةَ ومَاتَ، وقِيلَ: ولَّاهُ بريدَ الموصلِ، فمَكثَ سَنتيْنِ ثم مَاتَ، وقد ذكَـرَ ابنُ خَلِّكانَ هذهِ القصةَ (وفَياتُ الأعيانِ: ج2، ص 14– 16)، ورَوَى الروايةَ التِي تقولُ إنَّ الممدُوحَ هوَ الخليفةُ المعتصِم، وليسَ ابنَه الأميرَ (أَحْـمَد)، ثُـمَّ عَقَّبَ ابنُ خَلِّكان علَى هذهِ القصةِ، فقالَ: "هَذهِ القصةُ لا صحةَ لَـهَا أَصْلًا"، لكنَّ الشكَّ فِـي صحتِهَا لَا يَنفِي جَـمالَـها، وَلَا يقللُ من بديهةِ أَبِـي تَـمامٍ وحُسْنِ تَخلصِه، وبَراعةِ استدلالِهِ، وقياسِهِ معنَاهُ بقولِ الله تعالَى: ﴿**اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ...**﴾ (سورة النور: 35).

وقول **أبي تمامٍ** كذلكَ:

لا تُنْكِـرِيْ عَطَـلَ الكَـرِيْمِ مِـنَ الغِنَـى فَالسَّيْلُ حَرْبٌ للمَكانِ العَالِي

وكانَ **استخدامُ البراهينِ العقليةِ** فِـي تفسيرِ الأفكارِ وتجسيدِ المعانِي والتدليلِ عليهَا نتيجةً لإقبالِ الشعراءِ علَى الثقافةِ العِلميةِ، والآراءِ الفلسفيةِ والمذاهبِ الكلاميةِ، وقدِ اختلفَ الشعراءُ فِـي بُروزِ صَدَى هذهِ الأفكارِ فِـي شِعرهم؛ فَمِنهم مَنْ ظَـلَّ مُـحافظًا عَلى صوتِ الشعرِ وَلَـمْ يُـغلِّبِ الناحيةَ العقليةَ أو المذهبَ الفكرِيَّ عَليهِ، ومِنهم مَن مَزجَ بينَ الشعرِ والمذهبِ الفلسفِـيِّ حتى يُمكنَ وصفُهم بالفلاسفةِ الشعراءِ كَالمتنبِّي وأَبِي العَلاءِ المعريِّ. ومِنَ الأفكارِ الفلسفيةِ التي ترددتْ فِـي أشعارِهم فِكرةُ الجبرِ والاختيارِ وتَعطيلِ الإرادةِ الإنسانيةِ أمامَ القدرَةِ الإلهيةِ، وَمِن ذَلِكَ قَولُ **بَشارٍ** مُتعجبًا مِنْ حِسابِ الإنسانِ عَلى مَا أُجبرَ عليه بِلا إرادةٍ مِنهُ:

طُبِعْتُ عَلَى مَا فِي غَيْرَ مُخَيَّرِ هَوَايَ وَلَوْ خُيِّرْتُ كُنْتُ الْمُهَذَّبَا
أُرِيدُ فَلَا أُعْطَى وَأُعْطَى وَلَمْ أُرِدْ وَقَصَّرَ عِلْمِي أَنْ أَنَالَ الْمُغَيَّبَا
فَأُصْرَفُ عَنْ قَصْدِي وَعِلْمِي مُقَصِّرٌ وَأَرْجِعُ مَا أَعْقَبْتُ إِلَّا التَّعَجُّبَا

ومنه تفسيرُ الشاعرِ **(ابن الرومي)** لبكاءِ الطفلِ لحظةَ الميلادِ:

لِمَا تُؤْذِنُ الدُّنْيَا بِهِ مِنْ صُرُوفِهَا يَكُونُ بُكَاءُ الطِّفْلِ سَاعَةَ يُولَدُ[1]
إِذَا أَبْصَرَ الدُّنْيَا اسْتَهَلَّ كَأَنَّهُ بِمَا سَوْفَ يَلْقَى مِنْ أَذَاهَا يُهَدَّدُ[2]
وَإِلَّا فَمَا يُؤْذِيهِ مِنْهَا وَإِنَّهَا لَأَفْسَحُ مِمَّا كَانَ فِيهِ وَأَرْغَدُ[3]

3- التجديدُ فِي الألفاظِ والأَسَاليبِ:

تَعددتِ الموضوعاتُ الشعريةُ فِي الشعرِ العباسيِّ، وتأثرتِ الألفاظُ والتراكيبُ بهذَا التنوعِ؛ فغلبتِ الألفاظُ التراثيةُ فِي الأغراضِ التقليديةِ، وشَاعتِ اللفظةُ الرقيقةُ السهلةُ ذاتُ الإيقاعِ الغِنائِيِّ فِي شِعرِ الخمرياتِ والغزَلِ واللهوِ والفكاهةِ، مَعَ بروزِ الصنعةِ البديعيةِ. فضلاً عَن أثَرِ الثقافةِ العربيةِ والإسلاميةِ الموروثةِ والثقافاتِ الأجنبيةِ الوافدةِ والعلومِ والمعارفِ عَلَى ألفاظِ القصيدةِ العباسيةِ وتَراكيبِهَا.

كَمَا تَعدَّدتْ مَلامحُ تَطورِ الألفَاظِ فِي الشعْرِ العباسيِّ؛ فبالإضَافَةِ إِلَى اللفظةِ العَربيةِ التراثيةِ الجزْلَةِ، واللفظةِ القرآنيةِ والدينيةِ المتأثرَةِ بالعلومِ الدينيةِ وُجِدَتِ اللفظةُ الأعجميةُ الدخيلةُ مِنَ الثقافاتِ الأجنَبيةِ فِي الصياغَةِ الشعريةِ، وَبعضُ مصطلحَاتِ العلُومِ المزدهِرَةِ فِي العصرِ العباسيِّ مثلَ علومِ المنطقِ والفلسفةِ والرياضياتِ، فَضلًا عنِ الصنعةِ البديعيةِ التي تُزينُ الكلامَ بعدَ استيفائِهِ مطابقَةَ الحالِ وأدَاءَ المعنَى بالصورَةِ الملائمَةِ؛ فقدْ أخذَ الشعَرَاءُ يَتبارَوْنَ ويَتنافَسُونَ فِي الإكثارِ مِنَ المحسنَاتِ البديعيةِ حتى تَكلَّفُوا البدِيعَ فِي الصياغةِ الشعريةِ إِلَى أنْ أصابَ الجمودُ الإبداعَ الشعريَّ فِي فَترَةٍ أعقبتْ مرحلةَ الازدهَارِ والاستقرارِ.

---

(1) **تؤذن:** تُعلِمُ وتُخبرُ، والمراد تهدد، **صروفها:** نوائبها ونوازلها.

(2) **اِسْتَهَلَّ المَوْلودُ:** رَفَعَ صَوْتَهُ بِالبُكاءِ وَصاحَ عِنْدَ الوِلادَةِ.

(3) **أفسح:** أوسع وأرحب، **وأرغد:** أخصب وألين، **رَغِدَ العيشُ:** اتَّسَعَ وأَخصَبَ ونعُم وطابَ.

مِنَ النماذجِ الشعريةِ التي نَستشهِد بِهَا على التطورِ والتجديدِ الذِي أصابَ الألفاظَ والأَساليبَ بعضُ أبياتِ **الصَّـنَـوْبَـرِيِّ** الذِي اشتُهرَ بوصْفِ الرياضِ والبساتينِ والأشجارِ والأزهارِ والحياضِ والأنهارِ، حتى عُرِفَ ديوانُـهُ **بالـرَّوضِيَّاتِ**، ومِنْ زَهْـرِيَّـاتِـهِ التِي تَـفِيضُ الألفاظُ فيها رِقَّـةً وعُذوبةً، وتَـتدَفَّـقُ خِـفَّـةً وَرَشَـاقَـةً قَـوْلُـهُ:

أَرَأَيْـتَ أَحْسَنَ مِـنْ عُـيُـونِ النَّـرْجِسِ أَمْ مِـنْ تَـلَاحُظِـهِنَّ وَسْـطَ الْـمَجْلِسِ

دُرَرٌ تَـشَـقَّـقُ عَـنْ يَـوَاقِـيتٍ عَـلَـى قُـضُبِ الـزُّمُـرُّدِ فَوْقَ بُسْطِ السُّنْـدُسِ

أَجْـفَانُ كَـافُـورٍ حُـبِـينَ بِـأَعْـيُـنٍ مِـنْ زَعْـفَـرَانٍ نَـاعِـمَاتِ الْـمَلْـمَسِ

فَـكَـأَنَّـهَا أَقْـمَارُ لَـيْـلٍ أَحْـدَقَـتْ بِـشُمُوسِ دَجْنٍ فَـوْقَ غُـصْنٍ أَمْـلَسِ[1]

أمَّـا الصنعَـةُ البديعيةُ فقَـدْ أُغْـرِمَ بِهَا **أبو تَمام** وأكثـرَ منهَا، وَمِنْ صُوَرِ الجِناسِ فِـي شِعْـرِهِ:

يَـمُـدُّونَ مِـنْ أَيْـدٍ عَـوَاصٍ عَـوَاصِـمٍ تَـصُولُ بِـأَسْـبَابٍ قَـوَاضٍ قَـوَاضِبِ[2]

وَمِن صور الجناسِ وتوظيفهِ فِـي غَرضِ المـدْحِ الاستفادةُ من أسماءِ الممدوحينَ كقولِ **أبِي نُواس:**

(1) **أحدَقَ به:** أحاط به من كُلِّ جهة، **والدجن:** إطباق الغيم والندى، وأخذه بأقطار السماء والأرض، **أملس:** لَيِّنٌ، ناعِمٌ.

(2) **يمدون من أيدٍ:** (مِنْ) هنا زائد، **والمعنى:** يمدون أياديَ أو سواعدَ، **عواصٍ:** تحتمل معنيين: **أجودهما:** أن تكون جمع عاصية من عصيته بالسيف أي ضربته، **والآخر:** أن تكون من العصيان، أي أنها لا تطيع أمر الملوك ولا الأعداء، إذْ ليس فوقها يد. **عواصم:** جمع عاصمة أي يعتصم من استجار بها، وقوله (عواص عواصم) يسميه أهل النقد تجنيس المقاربة، لأن اللفظين متقاربان ليس بينهما فرق إلا الميم، وكذلك قوله (قواض قواضب)، و**القواضي**: التي تقضي على الأعداء بما تريد، **وقواضب:** قواطع، **والمعنى:** يمدون أيديًا تعصي العاذلين فِـي الجود، وتعصم المستغيث الخائف بأسياف قاضية قاطعة. وهذا البيت من قصيدة فِـي مدح أبي دُلَفٍ القاسم بن عيسى العِجْليِّ.

عَـبَّاسُ عَـبَّاسٌ إِذَا احْـتَـدَمَ الْـوَغَـى وَالْـفَضْـلُ فَضْـلٌ وَالـرَّبِـيعُ رَبِـيعُ[1]

ومِنَ الطِّباقِ قَولُ **البُحتريِّ**:

مِـنِّـي وَصْـلٌ وَمِـنْكَ هَـجْـرُ وَفِـيَّ ذُلٌّ وَفِـيكَ كِـبْـرُ

أَنْـتَ نَـعِـيـمِـي وَأَنْـتَ بُـؤْسِـي وقَـدْ يَـسُوءُ الَّـذِي يَـسُـرُ

وَشَاعتِ كذلكَ الألفاظُ الدخيلةُ فِـي الشِّعْـرِ فِـي العصـرِ العباسيِّ، مثلَ "النرجسِ والنيروزِ والعنبرِ"، يَـقولُ ابنُ المعتزِّ فِـي وَصفِ الهلَالِ:

وَانْـظُـرْ إِلَـيْـهِ كَـزَوْرَقٍ مِـنْ فِـضَّـةٍ قَـدْ أَثْـقَـلَـتْـهُ حُـمُولَـةٌ مِـنْ عَـنْـبَرِ[2]

---

(1) عباس فِـي أول البيت هو عباس بن الفضل أنصاري، قاض من رجال الحديث، ولي قضاء الموصل فِـي عهد الرشيد وتوفى بها سنة 186 هـ، وكلمة عباس الثانية صيغة مبالغة من عبس وجهه إذا كلح وتجهم. والفضل الأول هو الفضل بن الربيع بن يونس وزير الرشيد ثم وزير الأمين، والفضل الثاني الشرف والرفعة. والربيع الأول هو الربيع بن يونس وزير المنصور العباسي، والربيع الثاني الخصب والنماء، **احتدم:** اشتد والتهب واشتعل، **الوغى:** صوت وجلبة والمراد صوت الحرب.

(2) **الزَّوْرَقُ:** القَاربُ يُدفع بالمجاديف، أَو بالآلة، **الـحُمُولَة:** الأثقال والأحمال، **والـحَمُولَة:** الناقة التي تحمل أو تطيق الأحمال، **العَنْبَـرُ:** مادةٌ صلبةٌ، لا طعم لها ولا ريح إلاَّ إذا سُحِقَتْ أَو أُحرِقَتْ، إِنَّه رَوثُ دابّة بحرية .. ولقد تعرضّت صورة الشاعر ابن المعتز للتنميط فِـي إطار «الأمير الأرستقراطي المرفّـه»، ومن ثم فإن إنتاجه عامة الشعري وغير الشعري قد وُسم بأنه لا يحمل تميّزاً يذكر، فهو مشغول بقصفه ولهوه ووصف ماعون بيته. والعبارة الأخيرة للشاعر ابن الرومي الذي نيل من شأن صوره وأهميتها، وقيل له: لم لا نجد عندك من التشبيهات الرائعة ما نجده عند ابن المعتز؟ فقال: حيث يقول ماذا؟ فأجيبَ: حيث يقول مصوراً الهلال:

وَانْـظُـرْ إِلَـيْـهِ كَـزَوْرَقٍ مِـنْ فِـضَّـةٍ قَـدْ أَثْـقَـلَـتْـهُ حُـمُولَـةٌ مِـنْ عَـنْـبَرِ

فقال ابن الرومي، مقالة جنت لاحقاً على ابن المعتز لأنها نمطته فِـي الإطار المشار إليه،: واغوثاه، إنه يصف ماعون بيته. أي أنه أمير مرفّه يرى الفضة والعنبر فيشبه بهما. ثم إن ابن الرومي انتصر لنفسه قائلاً ومتابعاً :ولكن انظروا ما أصنع عندما أشبِّه فاقول:

4-التجديدُ فِـي مُوسِيقَا الشِّـعْـرِ:

ارتبَـطَ التطورُ فِـي مُوسيقَا الشعرِ بشيوعِ الغنَاءِ وانتشارِ الآلاتِ الموسيقيةِ المصاحبةِ لَـهُ وكَثْـرَةِ مجالسِهِ، وقَـدْ بَـدَأَ هَـذَا فِـي وَقْـتٍ سابقٍ عَلى الدولةِ العباسيةِ عندمَا انتشـرَ الغنَاءُ فِـي الحجَازِ وأخَـذَ الشعرَاءُ ينتقونَ مِنْ نماذجِ الغـزَلِ مَا يَصلحُ للغناءِ، فأدَّى ذَلِكَ إِلَـى وَضْعِ المتلقِّى/ المستمِعِ نُصْبَ عينِ الشاعرِ، ومِنْ ثَـمَّ أضحَى القالَبُ الموسيقيُّ بالغَ الرقةِ ليسهُلَ تَذوقُـهُ وانتشارُهُ بينَ مُتلقيهِ، حَتى رَأَى بعضُ النقادِ المتقدمينَ أنَّ قِصَـرَ الأبياتِ وسهولةَ الوزنِ شَرطٌ لجودةِ بعضِ الموضوعاتِ كشِعْـرِ الهجَاءِ، وهَـذَا مَـا لُوحِظَ فِـي كثيرٍ مِن نماذجِ الهجَاءِ العباسيِّ؛ فقدْ صارَ الشعرُ مَقطوعاتٍ قصيرةً، سَهلةَ اللغَةِ يَسهُلُ ذُيوعُها بينَ الناسِ.

ولعلَّ خيرَ شاهدٍ على اهتمامِ الشاعرِ بتأثيرِ القالَبِ الموسيقيِّ على المتلقِّي، وَوَضْعِ المستمِعِ نصبَ عينيهِ، فضلًا عن سُهولةِ انتشارِهِ بينَ الناسِ ما رَواهُ صاحبُ الأغانِـي عَـنْ **أَبِـي الشَّمقمَقِ** الذِي هَجَا بَشّارًا بكلماتٍ تَـكادُ تَتحولُ إِلَـى أغنيةٍ شَعبيةٍ يُـردِّدهَا الصِّبيانُ كُلما أطلَّ عَليهم بَشارٌ، بَعدَ أن عَلِمَ بحصولِ بشارٍ على عطيةٍ كبيرةٍ، وَزَعَمَ أنهُ مَـرَّ بِصبيانٍ فَسَمِعَهُم يُنشدونَ شِعرًا، فأعطاهُ بشَّارٌ مِائتَـي درهمٍ قَائلاً: "خُـذْ هذهِ وَلَا تَـكنْ رَاويةَ الصِّبيَانِ يَا أبَا الشمَقْمَقِ (طَويلُ الجِسْمِ)"، وفِـيهَا:

هَـلِّـلِينَـــهْ هَـلِّـلِينَـــهْ طَـعْـنَ قِـشَّـاةٍ لِـتِـينَـهْ

إِنَّ بَـشَّـارَ بْـنَ بُـرْدٍ تَـيْسٌ اعْـمَى فِـي سَـفِينَـهْ

لَـمْ يَـقتصِـرْ قِصَـرُ البيتِ الشعريِّ وخفتُـهُ وسُهولتهُ علَى فَـنِّ الهجاءِ فقَط، وإنما امتدَّ إِلَـى بعضِ نماذجِ شعرِ الحكمةِ والغزلِ والمدحِ للغرضِ نفسِهِ وهوَ سهولةُ انتشارِ النموذَجِ الشعريِّ وكَثرةُ تَرديدِهِ بينَ الناسِ، وقدْ أوردتُ نموذجًا لأبِـي العتاهِيةِ فِـي مدحِ الخليفةِ أثناءَ الحديثِ عن شِعْرِ المدحِ، ومنْ ذَلِكَ مِدْحَـةُ **سَلْمِ الخاسِرِ** للخليفَةِ الهادِي، بَـنَاهَا عَلى تَـكْرارِ "مُسْتَفْعِلُنْ" أربعَ مراتٍ بقافيةٍ موحدةٍ:

إِنْ أَنْسَ لَا أَنْسَ خَبَّازًا مَـرَرْتُ بِـهِ يَـدْحُو الرُّقَاقَـةَ وَشْكَ اللَّمْـحِ بِالبَصَرِ

مَا بَيْنَ رُؤْيَـتِهَا فِـي كَـفِّهِ كُـرَةً وَبَـيْنَ رُؤْيَـتِهَا قَـوْرَاءَ كَـالْـقَمَرِ

إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا تَـنْـدَاحُ دَائِـرَةٌ فِـي لُـجَّـةِ الماءِ يُـلْـقَى فِيهِ بِالْـحَجَرِ

مُـوسَى الْـمَـطَـرْ غَـيْثٌ بَـكَـرْ ثُـمَّ انْـهَـمَـرْ أَلْـوَى الْـمِـرَرْ

كَـمِ اعْـتَـسَـرْ وَكَـمْ قَـدَرْ ثُـمَّ غَـفَـرْ عَـدْلُ السِّـيَـرْ

وَيُـضافُ إلـى مَا سبَق – مِنْ شيوعِ استخدامِ الأوزانِ القصيرةِ استجابةً للإيقاعِ السريع، واستجابةً لمقتضياتِ الغناءِ والطـرَبِ – ظهورُ "المـزْدَوِجِ"[1] صورةً أُخْـرَى من صُورِ التجديدِ فِـي الأوزَانِ الشعريةِ، وهوَ علَـى وَزنِ الرجزِ غالبًا، تتفقُ عَروضُه وضَربهُ فِـي القافيةِ التي تختلفُ مِن بيتٍ لبيتٍ، وشاعَ استخدامُه فِـي الشعرِ التعليميِّ لسهولةِ الحفظِ والترديدِ، وقد نظمَ **أبو العتاهيةِ** مُطولَـتَـهُ "ذاتُ الأمثالِ" فيهِ، ومِنها:

---

(1) **المـزدَوِجُ:** فِـي اللغَـةِ: مَا تَـألفَ مِنْ عنصريْـنِ متماثلَينِ، وفِـي الاصطلَاحِ: نَمطٌ شِعـرِيٌّ مَبنيٌّ علَـى أساسِ الأبياتِ المصـرَّعَـةِ بمعنَى أنّ قافيةَ الشطرِ الأولِ هيَ قافيةُ الشطرِ الثانِـي نفسُها (أيْ أنَّ الشاعِـرَ يُصـرِّعُ أبياتَ القصيدةِ كُلِّها)، وقدِ استعملَ الشعراءُ العباسيونَ هذَا النمطَ فِـي نَـظْم بعضِ المسائلِ العلميةِ بِـقصدِ حفظِهَا، وتَعليمِ الناشئةِ بواسطتِها، وأهمُّ مَـنْ نظَـمَ فِـي المزدوجِ الشاعـرُ العباسـيُّ أبو العتاهيَـةِ لَـه مزدوجَـةٌ طويلَـةٌ بعنوانِ (ذاتُ الأمثَـالِ) وهذهِ بعضُ أبياتِـهَا (الرجز):

حَـسْبُكَ مِـمّا تَـبْـتَغِيهِ الْـقُوتُ مَـا أَكْـثَرَ القُوتَ لِـمَنْ يَـمُـوتُ

الْـفَـقْـرُ فِـيمَا جَـاوَزَ الْـكَـفَافَـا مَنِ اتَّـقَى اللهَ رَجَـا وَخَـافَـا

هِـيَ الْـمَـقَادِيـرُ فَـلُـمْـنِي أَوْ فَـذَرْ إِنْ كُـنْتُ أَخْطَـأْتُ فَـمَا أَخْطَـأَ الْـقَـدَرْ

لِكُـلِّ مَـا يُـؤذِي وَإِنْ قَـلَّ أَلَـمْ مَـا أَطْـوَلَ اللَّـيْـلَ عَـلَـى مَـنْ لَـمْ يَـنَـمْ

وَعلَـى هذَا النسَقِ يَبني الشاعر مزدوِجتَـه، فكانتْ أطولَ مَا كتبَـهُ، ولعلّ خـروجَـه علَى القافيةِ الواحدةِ سَهَّـلَ عليهِ عمليةَ القولِ الشعريِّ ومنحَـه القدرةَ علَـى التعبيـرِ عن مشاعرِهِ وأحاسيسِهِ، وموقفِهِ من الوجودِ، وَلَـمْ تَـقفِ القافيةُ عَائقًا أمامَ استرسَالِـهِ فِـي النظمِ فَـطَالَ نفَسُـهُ الشعْـرِيُّ. كما وردَ فِـي ديوان أبي نواس المخطوط روايَـة الأصفهاني مُـزدَوِجَـةٌ فِـي بابِ المجُـونِ يَـقولُ فِـيهَا:

يَـا رَاقِـدَ اللَّيْـــل احْـذَرْ مِـنَ الْـوَيْـلِ

لَا تَـأْمَـنِ الـدَّهْـــرَا إِنَّ لَـــهُ غَـــدْرَا

الـدَّهْـرُ ذُو صَـرْفٍ يَـرْمِـيكَ بِـالْـحَيْـفِ

إِنَّـا لَـفِـي اغْـتِـرَارِ بِـاللَّـيلِ وَالـنَّـهَارِ
حَـتَّى مَـتَى الـتَّـوَانِـي وَنَـحْـنُ فِـي الـتَّـفَانِـي
مَـا أَوْضَـحَ السَّبِـيلَا وَأَسْـرَعَ الـرَّحِـيلَا
أَمَـا تَـرَى الْـعُـيُونُ مَـا تَـصْـنَـعُ الْـمَـنُونُ
أَيْـنَ الَّـذِيـنَ كَـانُـوا أَفْـنَاهُـمُ الـزَّمَـانُ

وَمِن صورِ التجديدِ فِـي القافيةِ **ظهورُ "المسمَّطَاتَ"**[1]، وهيَ قصائدُ تتكونُ من أدوارٍ، يتكونُ كلُّ دَورٍ مِنْ أربعَةِ أشطـرٍ أو أكثرَ، تتفق كلها فِـي القافيةِ ما عدَا الشطْـرَ الأخيـرَ الذِي يستقل بقافيةٍ مغايرةٍ تتحدُ مع الشطورِ الأخيرةِ فِـي الأدوارِ كلها، كما ظَهرتِ **"المخَمَّسَاتُ"** التي تتألف من أدوارٍ يتكونُ الواحدُ منهَا مِنْ خَـمسةِ أشطُـرٍ، الأربعةُ الأولَـى منهَا متحدَةُ القافيـةِ التِـي تَـختلِفُ مِنْ دَوْرٍ لآخَـرَ، ويَـأتِـي الشطْـرُ الخامسُ متحِدَ القافيةِ فِـي القصيدةِ كلِّـها. وَمِنْ نَماذجِ المسمَّطاتِ خَـمريةُ **أَبِـي نُواسٍ** التِي يقولُ فِيهَا:

سُـلَافُ دَنٍّ كَـشَمْـسِ دَجْـنِ
كَـدَمْـعِ جَـفْـنِ كَخَـمْـرِ عَـدْنِ
يَـسْقِـيكَ سَـاقٍ عَلَـى اشْـتِـيَاقِ
إِلَـى تَـلَاقٍ بِـمَاءِ مُـــزْنِ
يَـا مَـنْ لَـحَانِـي عَلَـى زَمَـانِـي
اللَّـهْـوُ شَانِـي فَـلَا تَـلُـمْنِـي

(1) **السِّماط:** الصف، أو العِقدُ، **السِّمْطُ:** الخيطُ ما دامَ الخرَزُ ونحوُه منظومًا فيه، وإلَّا فهو سِلْكٌ، سِمْطُ الْوَشَّحِ: هُوَ كُلُّ شِعْرٍ مِنْ أَشْطُرِ الدَّوْرِ، وَتَخْتَلِفُ الأَسْمَاطُ مِنْ حَيْثُ عَدَدُ الفِقْرَاتِ بَيْنَ مُوَشَّحٍ وَآخَرَ **التسميط:** مصْطَلَحٌ شِعْرِيٌّ يُطْلَقُ عَلَى بَيْتِ الشِّعْرِ عِنْدَما يُقَسَّمُ إِلَـى أَجْزَاءَ عَرُوضِيَّةٍ عَلَى غَيْرِ رَوِيّ القَافِيَةِ، **المسمط من الشعر:** ما قُـفِـي أرباع بيوته وسُـمِّـطَ (نُظِمَ) فِـي قافية مخالفة، وتسمَّى القصيدة مسمَّطَة.

فَـأَبُو نُواسٍ فِـي النموذَجِ السابقِ مُـجدِّدٌ فِـي الموسيقَا دُونَ تَـكلُّـفٍ أو صَنعَةٍ، وإنَّـما وَافَـقُ طبعَـهُ ولَاءَمَ مَذهبَه فِـي الحياةِ والشِّعْـرِ.